

طه حسين

الأوراق المجهولة

مخطوطات طه حسين الفرنسية

(طبعة بلغتين)

تحقيق وترجمة: عبد الرشيد محمودى



TAHA HUSSEIN

LES MANUSCRITS FRANÇAIS

(Edition bilingue)

Texte établi et traduit en arabe par:

Abdelrashid Mahmoudi

طـه حسين

الأوراق المجهولة

مخطوطات طه حسين الفرنسية

المركز القـومى للترجمـة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف : جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2885
- طه حسين: الأوراق المجهولة
- عبد الرشيد محمودى
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

هذه ترجمة لمجموعة مخطوطات كتبها المؤلف بالفرنسية

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

E.mail:nctegypt@nctegypt.org. Tel.: 27354524 Fax: 27354554

طه حسين

الأوراق المجهولة

مخطوطات طه حسين الفرنسية

تحقيق وترجمة
عبد الرشيد محمودى



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

طه حسين ، طه بن على بن سلامة ، ١٨٨٩-١٩٨٣
الأوراق المجهول: مخطوطات طه حسين الفرنسية/ تحقيق وترجمة: عبد الرشيد محمودى.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٢١٦ ص، ٢٤ سم
١- المقالات العربية.
(أ) محمودى ، عبد الرشيد (محقق ، مترجم)
(ب) العنوان ٨١٤

رقم الإيداع: ٢٧٧٤٧ /٢٠١٥
الترقيم الدولى 5 - 0434 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تصدير

النصوص التي يضمها هذا الكتاب مجهولة لأنها مسودات أملاها عميد الأدب العربى بالفرنسية، وإن لم يعن بنشرها فيما نعلم لأسباب غير معروفة. وهى بهذا المعنى "مخطوطات". وقد ظلت مطوية بين أوراق طه حسين المهملة ولم يُكشف النقاب عنها إلا مؤخرا. وكان من حسن حظى أن أتيح لى الاطلاع عليها ونشرها مترجمة فى *الأهرام* تباعا بداية من ١٤ يونيو ٢٠١٥؛ ويسعدنى الآن أن أقدم للقراء الترجمة مع الأصول الفرنسية فى مجلد واحد.

وسيجد القراء فيما يلى مقدمة عامة للمجلد ككل، تليها سلسلة من المقدمات الخاصة بالمقالات كل على حدة[١]. وكانت هذه المقدمات الخاصة قد نشرت فى *الأهرام* متفرقة كل مع ترجمة المقالة المعنية. ثم رأيت عند إعداد هذا الكتاب أن أجمعها فى إطار باب قائم بذاته بمعزل عن مقالات طه حسين. وقد رتبت هذه المقالات الأخيرة وفقا لمعيار سأوضحه فيما يلى.

---

(١) باستثناء مقدمة واحدة كتبتها لتقديم مقالتين معا هما: خطاب طه حسين فى جامعة أثينا بمناسبة منحه الدكتوراه الفخرية؛ وملخص لخطاب طه حسين بمناسبة افتتاح معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية بمدريد.

ولنشر هذه المقالات باللغتين – الترجمة العربية تليها الأصول الفرنسية – أهمية بالغة يجدر التنويه بها لسببين. أولا، أن جمع هذه الأصول ونشرها فى طبعة علمية نقدية يحفظها من التشتت والضياع. يضاف إلى ذلك ثانيا أنه يتيحها للاطلاع على نطاق العالم، ولا سيما أن طه حسين وجهها جميعها لغير الناطقين بالعربية، أو"لغير المسلمين" كما قال عن مقالة بعينها[1]. ولا ينبغى لنا نحن الناطقين بالعربية أن نستأثر بها، بل ينبغى أن تتاح أيضا إلى من قصدهم فى المقام الأول. وسوف يجد القراء فى الحالتين دفاعا يلقيه على مسامع الغرب عن المصالح المصرية والعربية، وتمجيدا للثقافة العربية الإسلامية؛ وعلينا نحن أبناء العربية أن نعيه بدورنا.

وقد سبق لى أن ترجمت ما أسميته "كتابات طه حسين الفرنسية"[2]، ولامنى بعض المعلقين على أننى لم أنشر الأصول الفرنسية لهذه الكتابات. وهو نقد له قدر من الوجاهة؛ فما أجمل أن تنشر تلك الكتابات مع ترجمتها العربية. ذلك أمر مستحب، ولكنه ليس واجبا ملزما لأى إنسان منا لأن الكتابات المذكورة منشورة بالفعل فى مصادر مصرية أو أجنبية، ومن الممكن لمن يريد الاطلاع عليها أن يرجع إليها فى مصادرها التى حرصت على تحديدها فى

---

(١) انظر مقالة "قوة القرآن من الناحية الصوفية مشروحة لغير المسلمين".

(٢) انظر كتاب طه حسين، من *الشاطئ الآخر: كتابات طه حسين الفرنسية*. نشرت الطبعة الأولى فى بيروت سنة، ١٩٩٠. وصدرت الطبعة الثالثة عن المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨.

كل حالة. ولقد فعلت ما أمكنني فعله عندما أقدمت على تنفيذ المشروع في الثمانينيات من القرن الماضي. أما في حالتنا هذه - حالة المخطوطات التي لم تنشر بقدر ما نعلم - فمن الضروري أن تقدم ترجمتها مع إتاحة أصولها الفرنسية.

ورأيت عند جمع هذه النصوص في مجلد واحد أن أدخل بعض التعديلات على العمل كما نشر في *الأهرام*. ومن ذلك ما ذكرته عن جمع المقدمات الخاصة في باب قائم بذاته. ثم إنني أعدت ترتيب هذه النصوص وفقا لحظها من التعمق. فبعض هذه المقالات كتب في مناسبات خاصة ولغرض محدد - ومن الممكن أن تعد "ثانوية" بهذا المعنى - في حين أن بعضها الآخر كتب على سبيل الدراسة والبحث. ورأيت إذن أن أبدأ بالفئة الأولى من المقالات. ولنفس هذا السبب كانت المقالة الأخيرة في المجموعة هي المخطوطة التي يتناول فيها كاتبها قوة القرآن مشروحة لغير المسلمين، فهي مقالة نظرية شديدة العمق. يضاف إلى كل ذلك أخيرا أنني أدخلت طلبا لمزيد من الوضوح تصويبات وتنقيحات تمس الصياغة ولا تمس المضمون. كما أضفت حواشي أردفتها بحرف الميم لتدل على المحقق والمترجم وللتفرقة بينها وبين الحواشي التي ترجع إلى طه حسين.

وينبغي أن أشير هنا إلى تصويبات بعينها لأنها تتعلق بتصحيح خطأ ارتكبته أحيانا في نسبة المقالات إلى طه حسين. فقد ذكرت في المقدمة العامة كما نشرت في *الأهرام* أنني عثرت بين أوراق طه حسين على مقالة له عن المسيح وفقا للقرآن، وهي مقالة لن يجد

القارئ لها أثرا هنا. وذلك أننـــى اســتبعدتها بعــد أن تبــين لــى أنهـــا لا يمكن أن تنسب إلى طه حـــسين لأن كاتبهـــا يتحـــدث عـــن مدينـــة حلـــب بوصفها مسقط رأسه.

وهنـــاك مقالـــة أخـــرى وجـــدتها بـــين أوراق طـــه حـــسين عـــن ضرورة التجديد فى دراسة النحو العربى. وخيـــل إلـــى لأول وهلـــة أنهـــا من إملاء طه حسين لأنه كتب فى هذا الموضـــوع فـــى مناســـبات أخـــرى. ولكن تبين لى عند قراءة المقالة بعين فاحصة أن كاتبهـــا يـــشير إلـــى طـــه حسين بضمير الغائب، فاستبعدتها.

وهناك مقالة ثالثة توقفت عندها طـــويلا قبـــل التأكـــد تمامـــا مـــن أنها من تأليف طه حسين، وهى تلك المقالة التى أشـــرت إليهـــا آنفـــا عـــن قوة القرآن مشروحة لغير المسلمين. فهـــى لا تحمـــل توقيـــع طـــه حـــسين مكتوبا على الآلة الكاتبة كمـــا هـــو الحـــال فـــى مقـــالات أخـــرى. إلا أن هناك ثلاثة أدلة تقطع مجتمعة بـــصحة نـــسبتها إلـــى طـــه حـــسين. أولا، أننى وجدت المخطوطة المذكورة فى أكثر مـــن نـــسخة، ومعدلـــة بكثافـــة. ومن المستبعد أن يعهد كاتب آخر إلى طه حسين بمقالـــة مـــن عـــدة نـــسخ وبعيدة عن الـــصياغة النهائيـــة. وثانيـــا، أن أحـــدا غيـــر طـــه حـــسين لا يستطيع الكتابة عن جماليات القرآن الكريم علـــى نحـــو مـــا فعـــل: بتفقـــه ودقة وعمق. وثالثا، أن الكتابـــة عـــن "قـــوة" القـــرآن وشـــدة تـــأثيره فـــى النفوس – نفـــوس العـــرب الجـــاهليين الـــذين تلقـــوه فـــى بـــادئ الأمـــر وأخضعهم لسلطانه، ونفس طـــه حـــسين هـــو الـــذى حفـــظ القـــرآن منـــذ الطفولة ودأب علـــى قراءتـــه طيلـــة حياتـــه وشـــعر بالرهبـــة والخـــشوع والرضا كلما تُلى عليه رغم ميولـــه ومواقفـــه "العلميـــة" – وعـــن إعجـــاز

الكتاب بهذا المعنى، أمر مألوف فى حالة طه حسين ويتفق مع أقواله عن القرآن فى كتابات أخرى مثل *مرآة الإسلام*.

وليس من الصعب أن نخمن لماذا لم يوقع طه حسين على المقالة المذكورة. إذ يبدو من تعدد النسخ وكثرة التصويبات أنه لم يكن مستعدا بعد لنشرها، ولعله كان يرجئ ذلك حتى يدخل مزيدا من التنقيحات، ثم أهملها لسبب أو لآخر شأنها شأن كتابات أخرى.

ولا يفوتنى أخيرا أن أتقدم بالشكر والتقدير لأفراد أسرة طه حسين وأسرة المرحوم محمد حسن الزيات الذين منحونى ثقتهم فصرحوا لى - بوصفهم ورثة حقوق المؤلف - بترجمة ونشر هذه المخطوطات، وهم : السيدة أمينة أوكادا (ابنة مؤنس طه حسين)، والسيدة مها عون (حفيدة الدكتور محمد حسن الزيات)، والسيدة سوسن الزيات، والأستاذ حسن الزيات.

وأود أن أشكر أيضا المسؤولين فى صحيفة *الأهرام* الذين استقبلوا ترجمتى وتعليقاتى بحفاوة وأفسحوا للموضوع مساحات لائقة. ولقد كان ذلك سبقا صحفيا من الطراز الأول، بالإضافة إلى أنه واجب يؤدى نحو عميد الأدب العربى.

وأنا مدين بالشكر لصديقى الدكتور نبيل السخاوى الذى نقل إلى الفرنسية التصدير الذى كتبته بالعربية للجزء الفرنسى من الكتاب.

ع. م.

القاهرة، نوفمبر ٢٠١٥

مقدمة عامة

مخطوطات طه حسين الفرنسية هى نصوص أملاها طه حسين على من كتبها على الآلة الكاتبة أو بخط اليد قبل نشرها مطبوعة أو إلقائها كمحاضرة أو خطبة أو توجيهها على شكل رسالة إلى شخص أو تقرير لجهة ما فى صورة نهائية. إلا أنها لم تنشر ولم تذع بقدر ما نعلم. وإذا صح ذلك كان معناه أنها مجهولة تماما. وهى تختلف إذن عن كتابات أخرى ألفها طه حسين بالفرنسية وسبق أن ترجمتها وجمعتها فى كتاب عنوانه طه حسين: *من الشاطئ الآخر، كتابات طه حسين الفرنسية* (الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠). فهذه الكتابات الأخيرة نشرت بلغتها الأصلية فى صورتها النهائية، ومن الممكن الرجوع إليها فى مصادر معروفة أحلت إليها فى حواشى ذلك الكتاب. ومخطوطات طه حسين الفرنسية نصوص ترى النور الآن لأول مرة مترجمة بالعربية.

وقد ظلت هذه المخطوطات الفرنسية مطوية لسنوات طويلة بين الأوراق التى خلفها طه حسين، ونجت لحسن الحظ سليمة أو تكاد مما أصاب أوراقا أخرى فقدت فيما يبدو إلى الأبد. ويعنى ظهور هذه المخطوطات فى الوقت الحاضر فتح ملف خيل إلى أنه أغلق وأردت له أن يطوى. وذلك أننى ظننت أن كتاب *من الشاطئ الآخر* يضم معظم الكتابات الفرنسية لطه حسين، وأنه لم يبق منها إلا قليل قد تتكشف عنه

الأيام، وعندئذ يضاف إلى الكتاب فى طبعة مزيدة ومنقحة. وهو ما حدث بالفعل فى الطبعة الثالثة من الكتاب (المجلس القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨). وكنت قد نشرت فيما بين الطبعة الأولى والطبعة الثالثة عددا من الكتب عن طه حسين، ورأيت أننى أديت الواجب نحوه، وأن الأوان قد آن لكى أنصرف إلى أعمال أخرى.

ومن الواضح الآن أننى كنت واهما، وأن طه حسين لا يريد لملفه أن يطوى لا فى حياتى ولا فى حياة الغير. فها هى مخطوطاته الفرنسية تخرج من زوايا النسيان وتطالبنى بأن أعنى بها. وها هو المارد يخرج من القمقم.

طه حسين لا يفتأ يفاجئنا ويدهشنا. المخطوطات التى أقدمها الآن مهمة من حيث الكم. فلسنا هنا بصدد ورقة أو أوراق نادرة كانت شاردة هنا أو هناك، بل نحن نواجه مجموعة يعتد بها من النصوص التى لا يجوز أن تضاف إلى كتاب آخر، بل ينبغى أن تجمع فى كتاب قائم بذاته. زد على ذلك أن هذه المخطوطات مهمة من حيث الكيف وبفضل قيمتها الذاتية. أولا لأنها تدلنا لأول مرة وعلى وجه أقرب إلى اليقين على طريقة طه حسين فى التأليف. نحن نعلم أنه كان يملى ولا يكتب؛ وقد صرح بذلك فى إحدى كتاباته الفرنسية (انظر مقالة "أنا لا أكتب وإنما أملي"، كتاب *من الشاطئ الآخر*). ولكننا نعلم أيضا أنه كان يرتجل أحيانا من وحى المناسبة وفى مواجهة الجمهور. ولكن أين ينتهى دور الإملاء ويبدأ دور الارتجال فى مؤلفات طه حسين؟ نستطيع أن نقطع بأنه كان يعتمد

على الإملاء فى كل ما نشره بالعربية من كتب أو مقالات سواء جمعت فى كتب أو نشرت متفرقة. وفى مثل هذه الحالات كانت النصوص المملاة يدفع بها إلى المطبعة لكى تنشر فى صورتها النهائية، وعندئذ ينتهى دور المخطوطات وتختفى فى المطبعة. ومن أمثلة ذلك محاضرات طه حسين التى ألقاها على طلاب الجامعة المصرية عن الشعر الجاهلى (١٩٢٥) أو مقالاته التى نشرت متفرقة ثم جمعت فى *حديث الأربعاء* أو فى *على هامش السيرة*. فلم يبق من هذه الكتابات مخطوطات بعد طبعها: كان طه حسين يسلمها إلى المطبعة ولا يحتفظ لنفسه بنسخ منها.

ولكن ماذا نقول عن محاضرات طه حسين ومقالاته وخطبه وتصريحاته التى ألفها بالفرنسية؟ بعض هذه الكتابات ينطبق عليه ما قلت عن الكتابات العربية؛ فقد بقى لدينا منها نص مطبوع واختفت مخطوطاتها فى معظم الحالات. ومن هذه الكتابات على سبيل المثال دراسة كتبها طه حسين ونشرت تحت عنوان "البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر"، وترجمها محمد عبد الله عنان. وهناك نص مطبوع من الأصل الفرنسى ونص آخر مطبوع من الترجمة العربية. ولا يوجد نص مخطوط. أما إذا صرفنا النظر عن هذه الحالات، فقد يخيل إلينا أن طه حسين كان يرتجل ولا يملى. فهو يلقى الدراسة أو المقالة أو يدلى بالتصريح، وقد يشاء الحظ أن يسجل النص أو يلخص أو يضيع "فى الهواء". ذلك ما يبدو لأول وهلة ولكنه غير صحيح. فهذه المخطوطات التى ظهرت أخيرا تدل على أن طه حسين كان فى

معظم الحالات يملى مؤلفاته الفرنسية. كان يملـــى علـــى مـــن يكتـــب مـــا يقول على الآلة الكاتبة أو بخط اليد، وكـــان يحفـــظ هـــذه النـــصوص عـــن ظهر قلب أثناء إملائها أو عند تلاوتها عليه بعـــد تـــسجيلها وتنقيحهـــا فـــى بعض الأحيان.

ومعنى ذلك أن حظ الارتجال هنا قليل جدا. فقـــد كـــان لـــدى طـــه فى معظم الحالات نـــص يمليـــه ويحفظـــه فـــى ذاكرتـــه قبـــل أن يواجـــه الجمهور فيسترجعه أمام السامعين كلمـــة بكلمـــة إلا أن يتـــصرف هنـــا أو هناك لغرض محدد أو إذا لم تسعفه الـــذاكرة. كـــان يحفـــظ الـــنص أثنـــاء الإملاء أو عندما يتلى عليه بعد التدوين أو عند تنقيحـــه – وهـــو مـــا كـــان يحدث أحيانا. ويفسر لنا حفظ النص على هـــذا النحـــو تـــأنى طـــه حـــسين فى الإلقـــاء، وإتقانـــه لحـــسن النطـــق (مخـــارج الحـــروف) والإعـــراب، وتفننه فى توقيع الكلام. فكأنه ممثـــل يحـــسن الأداء بعـــد أن تلقـــن الـــدور وأحسن الحفظ بفضل "البروفات"، وأصـــبح بمقـــدوره عندئـــذ أن ينغمـــه أو يلونه كما يشاء. وتدلنا هذه المخطوطـــات بالتـــالى علـــى أن طـــه حـــسين إن كان قليل الارتجال، فقد كـــان صـــاحب ذاكـــرة خارقـــة، وبخاصـــة إذا تذكرنا أن بعض هذه النـــصوص طويـــل، وصـــعب مـــن الناحيـــة الفنيـــة، وكثير التفاصيل.

وبعض هـــذه المخطوطـــات يحمـــل تـــصويبات (مـــا بـــين إضـــافة وشطب) كتبت بخط اليد. وهو ما يدل علـــى أن طـــه حـــسين كـــان يعنـــى بتنقيح هذه النصوص قبل نشرها أو إلقائهـــا. فكيـــف كانـــت طبيعـــة دوره فى هذا التنقيح؟ لا نستطيع أن نحدد صاحب القلـــم الـــذى كتبـــت بـــه هـــذه

التصويبات؛ فهناك عدة احتمالات. من المؤكد أن سوزان طه حسين كانت تتدخل أحيانا فتجرى تعديلات تشمل تصحيح أخطاء النحو والهجاء وقد تشمل تحسين بناء الجمل. ولكن كان هناك أيضا آخرون من المحتمل أنهم كانوا يؤدون مهمة مشابهة، وذلك مثل أمينة طه حسين أو مؤنس طه حسين، أو سكرتيره أو أى شخص آخر يكون متاحا فى الوقت المناسب حتى ولو لم يكن من أفراد الأسرة. ولكن لنا أن نفترض أن التصحيحات - أيا من كان المصحح - كانت تعرض على المؤلف وتُجرى بموافقته.

أما فيما يتعلق بقيمة هذه الكتابات المخطوطة من حيث محتواها، فلا بد أن نؤكد أنها بالغة الأهمية، حتى لو كانت "ثانوية" بمعنى أنها ألفت لغرض محدد أو لأداء الواجب فى مناسبة. وذلك أنها تكشف عن جوانب نجهلها بدرجة أو بأخرى من فكر طه حسين وتثير الدهشة والتعجب والإعجاب فى بعض الحالات. بعض هذه الكتابات يفاجؤنا اليوم لأنه ما زال حيا أو "راهنيا" كما يقال. ومثال ذلك رسالة يقدم فيها كاتبها شرحا واضحًا وحكما قاطعا فيما يتعلق بفترة الحكم العثمانى فى مصر؛ ومقالة أخرى عنوانها "مشكلة الشرق"، وهو يشرح فيها المشكلات التى تعترض طريق التفاهم والسلام بين الشرق والغرب، مركزا على قضيتين - قضية شمال أفريقيا (المغرب العربى) وقضية فلسطين - ويدلى فيهما برأى حاسم ينهى الجدل لدى العقلاء حول موقفه من موضوع الجزائر ("الفرنسية")، وحول اتهامه بالتقصير فى حق القضية الفلسطينية. فطه

حسين لا يتهاون ولا يهادن في الحالتين، بل يرسم بوضوح حدود العالم العربى من ناحية الغرب وحدود فلسطين العربية مجردة من دعاوى الصهيونية وأطماعها.

ولا يفوتني أن أشير هنا إلى تقييم دور طه حسين كوسيط بين الثقافتين: الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية. فطه حسين عندما يتكلم الفرنسية ويوجه بها الخطاب إلى الفرنسيين والعالم الغربى بصفة عامة لا يسعى إلى إيجاد حل وسط أيا ما كان. صحيح أنه يحاول مد الجسور بين شاطئي البحر المتوسط؛ وصحيح أنه يرى ضرورة التعلم من الغرب ونقل علومه وفنونه وأساليب حضارته، ولكنه يعرف أين ينبغي أن توضع الحدود. فهو يحرص في هذه المخطوطات على تمجيد الثقافة العربية الإسلامية وعلى نقل وجهة نظر العرب والمسلمين صريحة قاطعة إلى الغرب ويواجه هذا الطرف الأخير ويصادمه بحقائق الجغرافيا والتاريخ والعدل. وهو رغم هيامه بفرنسا يقرر أن شمال أفريقيا (بما في ذلك الجزائر بطبيعة الحال) عربى حتى المحيط الأطلسى؛ وهو رغم عدائه للنازية واضطهادها لليهود يقرر أن أرض فلسطين التاريخية فلسطينية وستبقى كذلك. وبهذا المعنى ليس لدى طه حسين حلول وسط.

والصورة المألوفة عن طه حسين هى أنه "أديب". فهكذا وصف نفسه، وبهذه الصفة أراد أن يعرف. ولكن كثيرا من قراء طه حسين يأخذون هذا الوصف على علاته ويغترون بالحديث العذب والكلام المنمق، وينسون أن الأديب في عرف طه حسين هو - كما قال

القدماء - من يأخذ من كل شيء بطرف. والكتابات المخطوطة التي نحن بصددها تذكرنا باطراف من اهتمامات طه حسين قد يحلو لنا أن نغفلها لأنها صعبة وشائكة وتخرج عن نطاق الأدب بالمعنى الضيق. وهناك إذن دراسة يقارن فيها بين علماء الكلام المسلمين وبين الفيلسوف الألماني ليبنتز، وتذكرنا باهتمامات طه حسين الفلسفية و"اللاهوتية". وذلك أن طه لم ينس قط الدروس التي تلقاها في الأزهر في علم التوحيد. كلا ولم ينس قط الصدمة التي تلقاها عندما درس أبا العلاء وما تركت في نفسه من هزات فكرية بعيدة المدى.

ولقد قلت غير مرة إن طه حسين أقرب أدباء القرن العشرين إلى الفلاسفة. فلو لم يكن أديبا، لكان فيلسوفا. وهنا أشير بصفة خاصة إلى مقالة فريدة في أصالتها وعمقها. وأعني بذلك مقالة يشرح فيها بلاغة القرآن الكريم لغير المسلمين. وهي مثار للتعجب والإعجاب لأنه يشرح فيها "إعجاز" القرآن من الناحية الأدبية لمن يجهل العربية أو ينكر على القرآن امتيازه وسموه. وتلك مهمة صعبة، ولكن الصعوبة لا تثني المؤلف المقدام عن التصدي لها. وهو يلزم نفسه في هذا السياق بما لا يلزم فيتطرق بحديثه إلى الموسيقى التي يعرفها عن طريق السمع وإلى الفنون التشكيلية البصرية التي يجهلها. وطه حسين يؤدي في هذه الدراسة المستفيضة دور الفيلسوف لأنه يتناول جماليات النص القرآني وطابعه "التشكيلي".

وللاهتمام بالجوانب الفلسفية من تفكير طه حسين أهمية أساسية في فهم كتاباته المطولة في تاريخ الأدب والنقد، وقضية

المنهج، والشك، والعلاقة بين العلم والدين. فهـى كتابـات تتحـرك رغـم الحديث الهادئ الرائق فوق تيار عميق مـن المـسائل الأساسـية، وقلـق لا يتوقف بشأنها، وأجوبة متقلبة لا تستقر.

مقدمات خاصة

مصر تحت حكم الأتراك العثمانيين

يجد القارئ فى مقالة "رد طه حسين على وزير تركى" نـص رسـالة كتبها طه حسين بالفرنسية ردا على رسالة تلقاها مـن وزيـر تركـى مـن المفوضية التركية فى القاهرة ولم نستطع تبين اسمه من توقيعـه(١). وتتعلـق رسالة الوزير التركى بآراء كان طه حسين قد نشرها فى تلك الفتـرة (سـنة ١٩٤٥) عن حكم الأتراك العثمانيين لمصر. وقد كتبت رسالة طـه حـسين بخط اليد وهى تحمل كثيرا من التصويبات. ومن الواضح أن آراء طه حسين عن الحكم العثمانى فى مصر لم ترق للمسؤول التركى وحاول تفنيـدها فـى رسالته، وإن حرص فى ذلك على الالتزام باللياقة الدبلوماسية والأدب الجـم. فهو يغلف انتقاداته لآراء طه حسين بغلالة من التقـدير والاحتـرام. ومـن الملاحظ أيضا أن كاتب الرسالة بالإضافة إلى حصافته يدعم آراءه بمعلومات تاريخية واسعة النطاق لأنه يعلم أنه يناقش طه حسين المؤرخ. ولكـن هـذا الأخير لا تنطلى عليه تلك الحيل ولا يشتت انتباهه توسيع نطاق النقاش وتعدد الأمثلة، بل يعيد تركيز الحديث على المحور المحدد الذى يعنيه، وهو فتـرة الحكم العثمانى لمصر. وهو فى هذا النطاق يضع تفرقة حاسمة بين نـوعين من الحكم شهدتهما مصر عبر التاريخ: حكم تتمتـع فـى ظلـه بالاسـتقلال والازدهار حتى ولو كان الحاكم فى الأصل أجنبيا مثل البطالمة والفـاطميين

(١) انظر نص رسالة الوزير التركى فى الملحق الأول.

وسلاطين المماليك ومحمد على (الألبانى)؛ وحكم تفقد مصر فى ظله استقلالها ولا تنتج شيئا ذا بال لأنها تستنفد طاقتها فى مقاومة الحكم الذى لا يمثلها، حتى ولو كان حكما إسلاميا مثل خلافة بغداد أو حكم بنى عثمان. ومعيار التفرقة فى نظر طه حسين هو إلى أى حد يحرص الحكم المعنى على استقلال مصر ويسهر على مصالحها ويحمى أمنها القومى ويبسط نفوذها فى العالم. ومن الجدير بالنظر فى هذا السياق تمجيد طه حسين للسلاطين المماليك وازدهار مصر فى ظل حكمهم. والمماليك الذين يعنيهم هم المماليك الأول مثل الظاهر بيبرس والملك الأشرف قلاوون وقنصوة الغورى،وليسوا المماليك المتأخرين الذين أخضعتهم الخلافة العثمانية وجعلتهم ولاة على مصر وأشركتهم فى استنفاد مواردها إلى أن قضى عليهم محمد على. يقول طه حسين فى إحدى كتاباته الفرنسية عن تدهور المماليك وانحطاطهم فى ظل الحكم التركى: "وخلال ثلاثة قرون خضعت مصر لطغيان السلاطين الترك ولطغيان الولاة المماليك على حد سواء؛ وذلك أن المماليك – وقد عز عليهم أن يتقبلوا فقدان ملكهم – كانوا يقاومون [الأتراك] بقدر استطاعتهم وأصبحوا بمرور الزمن لا يمثلون إلا الفوضى. وكان المهم بالنسبة لهم أن يقاوموا الأتراك وأن يوقعوا الضرر بهم وأن يحولوا بينهم وبين الحكم الهادئ الذى كانوا يحلمون به. بيد أن المماليك قد انتهوا بفضل المقاومة على هذا النحو الفوضوى إلى إسخاط الأتراك والمصريين المساكين فى آن واحد. وفى تلك الفترة انقطعت كل العلاقات الخصيبة بين مصر والعالم الخارجى، وفرضت العزلة على مصر، وسقطت فى وهدة الجهل الأعظم..."(١)

(١) انظر مقالة "فرنسا ومصر" فى كتاب طه حسين، *من الشاطئ الآخر*، (القاهرة 2008) ص ١٦٩-١٨٢، ص ١٧١ (م).

مشكلة الشرق

كتبت هذه المقالة منسوبة إلى "الدكتور طه حسين بك" (انظر ص 59). والمخطوطة التى بين يدينا لا تحمل أى تاريخ. إلا أن السياق يدل بوضوح على أن مؤلفها أملاها غداة نهاية الحرب العالمية الثانية. وأعتقد أنه أراد أن يسهم بها فى المؤتمر الذى عقد عن سوء التفاهم بين الشرق والغرب فى مدينة البندقية (إيطاليا) فى سنة ١٩٤٥. وإذا صح هذا الافتراض، فيبدو أن طه حسين أراد أن يحدد فى مقالته أسباب سوء التفاهم المذكور وطريقة إزالته. ومن اللافت للنظر أن هذه المقالة التى كتبت منذ حوالى سبعين سنة ما زالت تحتفظ إلى حد بعيد بنضارتها، وهى تصلح مع بعض التعديلات المناسبة للمشاركة فى أى مؤتمر مماثل عن نفس الموضوع، أى عن سوء التفاهم بين الشرق والغرب. ومن هذه التعديلات تضمين المقالة إشارة صريحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بدلا من أوروبا بوصفها الممثل الرئيسى للطرف الغربى فى الأزمة القائمة بين الشرق والغرب. وفى هذه الحالة تصدق الانتقادات التى يوجها طه حسين إلى الغرب بسبب وعوده التى لا يفى بها، وتحايله الذى لا نهاية له، وأطماعه التى يريد تحقيقها دون مراعاة للتطور التاريخى ولمطالبة الشعوب المستضعفة بالحرية والعدالة والمساواة والعيش فى كرامة. وفى هذا السياق يركز طه حسين على مشكلتين أساسيتين يرى أنه لا بد من حلهما من أجل تحقيق التفاهم والسلم بين الجانبين: مشكلة شمال أفريقيا أو المغرب العربى والمشكلة الفلسطينية.

وهو فيما يتعلق بالمشكلة الأولى التى حلت منذ ذلك الحين وينبغى الآن حذفها من جدول الأعمال الذى أعده طه حسين، يقرر صراحة أن العالم العربى يمتد حتى المحيط الأطلسى. ومثل هذا التصريح ينبغى أن يدحض أى اتهام يوجه إلى طه حسين بدعوى تقصيره فى الدفاع عن استقلال الجزائر بسبب حبه لفرنسا.

أما المشكلة الثانية، وهى المشكلة الفلسطينية، فهى ما زالت قائمة وما قاله طه حسين بصددها ما زال صادقا وينبغى قوله اليوم رغم تراجعات العرب والفلسطينين وتنازلاتهم. يقول طه حسين بصريح العبارة: "... لقد كانت فلسطين دائما عربية، وهى ما زالت عربية. وينبغى أن تبقى كذلك. ويجب أخيرا أن تحكم نفسها كما تريد وليس كما تريد لها قوة أو أخرى من أوروبا أو أمريكا..." وقد أثير كثير من اللغط والاتهامات المشينة لمردديها فيما يتعلق بموقف طه حسين من القضية الفلسطينية. ولكنك لن تجد أقوالا فى رفض الصهيونية ودحض مزاعمها أكثر حسما من أقوال طه حسين عن عروبة فلسطين. فإنشاء دولة إسرائيل على التراب الفلسطينى فى رأيه "فكرة شيطانية" و"كابوس". وأقوال طه حسين فى هذا الصدد لا بد أن تثلج صدور الذين ما زالوا يؤمنون بأن فلسطين تمتد من النهر إلى البحر.

وعلى من يريد الاستزادة فى هذا الموضوع أن يقرأ كتاب الأستاذ حلمى النمنم عن طه حسين والصهيونية (*كتاب الهلال*، القاهرة ٢٠١٠). وقد يكون من المناسب أيضا أن يرجع إلى مقالة نشرها طه حسين تحت عنوان "الصلح مع إسرائيل" (*الجمهورية*، ٤ يوليو ١٩٥٦). وهى مراجعة لكتاب يحمل هذا العنوان لعميد الأمام. وهنا يصف طه حسين حرب سنة ثمانية

وأربعين بأنها "تلك الحرب التى سيندى لها جبين الإنسانية المتحضرة فى يوم من الأيام القريبة". ويقول فى موضوع الصلح مع إسرائيل: "... [إن] الصلح مع الظالمين إجرام ما دام ظلمهم قائما". وواضح من كل ذلك أن طه حسين – الذى لا يمكن أن يوصف بالتطرف السياسى– لا ينتمى لمعسكر "المعتدلين" والمتنازلين والمطبعين والمهرولين عندما يتعلق الأمر بفلسطين.

بين أثينا ومدريد

تتضمن مخطوطات طه حسين الفرنسية نص خطابين: أحدهما ألقاه فى جامعة أثينا بمناسبة منحه الدكتوراه الفخرية (مارس ١٩٥١) والثانى ملخص لخطاب ألقاه بمناسبة افتتاح معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية بمدريد (نوفمبر ١٩٥٠)؛ وهذا الملخص الذى كتب على الآلة الكاتبة وحمل بعض التصويبات بخط اليد هو كل ما تبقى من الخطاب فى أوراق طه حسين. ورغم أن الخطابين – الأثينى والمدريدى – ألقا لأداء الواجب لغرض مؤقت فى مناسبة عابرة، فإن لحديث طه حسين فى الحالتين أهمية باقية. وذلك أن الخطابين مثالان من بين أمثلة أخرى على نشاطه الدائب فى إطار رؤيا شاملة لما أسماه "وحدة الإنسانية"، وهى وحدة ثقافية تتمحور حول البحر المتوسط وتشمل الشرق الأدنى وأوروبا.

وليس من الممكن بدون ذلك الإطار فهم الانفعال العميق الذى شعر به طه حسين وأشار إليه فى مستهل خطابه الأثينى عندما وقف فى نفس المكان الذى وقف فيه من أسماهم "أساتذة الإنسانية"، وهم فلاسفة وخطباء يونانيون (سقراط وأفلاطون وأرسطو وديموستين وايزوقراط). ولو أننى تقيدت بالمدلول الحرفى لعبارته الفرنسية لقلت الانفعال الذى "أخذ بخناقه" أو الانفعال الذى "اختنق به" من شدة التأثر. فهو عندما وقف يخطب فى أثينا رأى فى وقفته تلك تحقيقا لحلم "محال" على حد تعبيره.

حلم أخذ يداعب خياله منذ عودته إلى مصر من بعثته الدراسية في فرنسا (١٩١٩)، وعبر عنه فى أولى محاضراته بعد تعيينه مدرسا لمادة التاريخ القديم فى الجامعة المصرية. يقول فى كتابه *آلهة اليونان* (١٩٢٠): "شديدة جدا هى حاجتنا إلى درس تاريخ اليونان القديم وما تركوا من أثر أدبي أو علمي. فليس إلى فهم ما للقدماء والمحدثين من أدب وعلم ومن فلسفة وسياسة وسيلة إلا درس الأمة اليونانية القديمة وآثارها... يجب ألا نجهل من أمرنا شيئا ويجب إلى ذلك أن نعلم من أمر غيرنا كل ما وجدنا إلى العلم به سبيلا. فإذا أضفنا إلى هذا أن العلم بتاريخنا الخاص موقوف على العلم بتاريخ اليونان لشدة ما بيننا وبينهم من الصلة الأساسية والأدبية منذ خمسة وعشرين قرنا وأن رقينا الحديث موقوف على درس هذا التاريخ لأن معنى هذا الرقي هو الأخذ بما يلائمنا من المدنية الحديثة وهذه المدنية يونانية قبل كل شيء."[١] ولم يكف طه حسين عن ترديد هذه المعانى على نحو أو آخر فى مؤلفاته التالية مثل *نظام الأثينيين لأرسطاليس* (١٩٢١) و*قادة الفكر* (١٩٢٥) و*مستقبل الثقافة فى مصر* (١٩٣٨).

إلا أن طه حسين وهو يشيد فى مقالته الأثينية بالتأثير اليونانى على الثقافة المصرية والإسلامية، لا يفوته أن ينوه فى المقابل بفضل الثقافة العربية الإسلامية فى حفظ التراث القديم ونقله إلى أوروبا، والمساهمة بذلك فى انتقال الغرب من العصور الوسطى إلى النهضة الحديثة. وفى رأى طه حسين أن تدفق ذلك التيار الحضارى الضخم من اليونان القديمة إلى الثقافة العربية الإسلامية ومن ثم انتشاره مجددا فى أوروبا يمثل دورة كبرى فى تاريخ الإنسانية وتحقيق وحدتها العقلية والروحية.

---

(١) طه حسين، *آلهة اليونان* (القاهرة ١٩١٩)، ص ٥-٦.

وما يقوله طه حسين هنا فى حاجة إلى تأكيد وتوضيح لأنه يؤدى إلى نتائج تمسنا مباشرة فى عصرنا الحالى. فهو يرى أن الثقافة العربية عندما تبنت التراث اليونانى القديم وعربته ونشرته فى أرجاء العالم نجحت فيما لم ينجح فيه الاسكندر تماما. أى أنها استطاعت – حيث لم يستطع – أن تصبغ العالم بالصبغة اليونانية. فما هى هذه الصبغة؟ هى أساسا العقلانية كما أسسها أرسطو. فأرسطو فى رأى طه حسين هو الذى نظم العلوم القديمة وقدم تفسيرا شاملا يتضمن قوانين التفكير والتعبير وقوانين السيرة العامة والخاصة. وهى فيما رأى طه حسين فى فترة ما قوانين ثابتة لا تتغير وملائمة للإنسان من حيث هو إنسان لا من حيث هو شرقى أو غربى. ويترتب على ذلك أن العرب عندما ترجموا علوم اليونان وشرحوها رسخوا العقلانية فى الفكر العالمى وأرسوا للعالم الغربى وللعالم ككل أسس التفكيو العلمى.

وجدير بنا نحن العرب المعاصرين أن نعى تماما دروس طه حسين فى هذا الصدد، ومنها حاجتنا إلى التواصل مع التراث اليونانى مباشرة ودون واسطة. فمن غير الممكن مثلا دراسة الفلسفة الإسلامية دراسة جادة بدون الرجوع إلى طابعها اليونانى كما نجده فى أفلاطون وأرسطو، وفى هذا الأخير بصفة خاصة، وفى الأصل اليونانى بدلا من الاستعانة.بترجمة فى لغة أوروبية أو أخرى. ونظرا لأننا لم نتبع حتى الآن هذا الطريق المستقيم، فقد أصبحنا نجد صعوبة فى فهم الفلسفة الإسلامية ونفض الغبار عنها واستيعابها فى فكرنا المعاصر، ووصل حاضرنا بماضينا. وظهرت من ثم آراء تجهيلية تنحو نحو التنكر لذلك الجزء الأساسى من التراث الإسلامى والإنسانى. ومن هذه الآراء قول البعض إن التفكير الإسلامى الأصيل ينبغى أن يلتمس فى علوم أخرى مثل علم الكلام أو أصول الفقه أو التصوف.

ومن المهم أن نلاحظ أن طه حسين يشير إلى أن العلاقــات العريقــة الوثيقة فيما بين مصر واليونان وبالتالى فيما بين جنــوب البحــر المتوســط وشماله لم تقم دائما فى ظل الانسجام والتعاون، بل كانت تنطوى أحيانا علـــى بعد صراعى، وإلى أن هذه العلاقات المعقدة بخيرهــا وشــرها أو بحلوهــا ومرها كانت خصبة مثمرة عظيمة العطاء. وأعتقــد أن إبــراز هــذا البعــد الصراعى يضيف إلى آراء طه حسين كما عبر عنها فــى كتــاب *مــستقبل الثقافة فى مصر* عنصرا تفتقده ويزيل عنها ما شــابها أحيانــا مــن التبــاس ويجعلها أكثر توازنا.

ونلاحظ عند الانتقال إلى خطاب طه حسين فى مدريد (١٩٥٠) أنــه يبرز بدوره البعد الصراعى. فطه حسين يرى أن الانسجام لم يكن دائما هــو القاعدة فى العلاقات بين العرب المسلمين والإسبان المسيحيين، وأن الطرفين "رويا بدمائهما" الحضارة الأندلسية العظيمة. ومن المستحــسن إذن أن يقــرأ الخطاب الأثينى والخطاب المدريدى معا، فهما متكاملان ويصدران كلاهمــا عن رؤية تاريخية واحدة ومتوازنة.

ومن اللافت للنظر أن اهتمام طه حسين بالعلاقات مع إسبانيا بدأ مثلــه مثل اهتمامه بالعلاقات مع اليونان فى فترة مبكرة من حياته كأستاذ جــامعى. فهو عندما شارك فى أول مؤتمر خارجى له – مؤتمر العلوم التاريخية الــذى انعقد فى بروكسيل فى سنة ١٩٢٣ – ساهم بمذكرة عن نــص وجــده فــى كتاب القلقشندى *صبح الأعشى* لمعاهدة دفاعية هجومية بين الملك الأشــرف خليل قلاوون وعدد من ملوك إسبانيا المسيحية (انظر طه حــسين، "مــؤتمر العلوم التاريخية" في كتاب *من بعيد*).

ويذكرنا الخطابان بخطاب ثالث ألقاه طه حسين عن العلاقات بين مصر وفرنسا فى المركز الجامعى للبحر المتوسط بمدينة نيس، فرنسا (١٩٥٠) بمناسبة افتتاح كرسى محمد على الذى أنشأته حكومة مصر. وهناك أيضا يشير طه حسين إلى أن إنشاء هذا الكرسى كان حلما يراوده منذ سنة ١٩٣٧ (انظر مقالة "فرنسا ومصر" فى كتاب *طه حسين من الشاطئ الآخر*). ويمكننا هنا أن نرى حلقة أخرى فى سلسلة طويلة من الجهود التى بذلها طه حسين بالقول والعمل طيلة حياته فى إنارة المحيط الجغرافى المترامى حول البحر المتوسط. ولو أننا تتبعنا أسفار طه حسين فى تلك الربوع ومآثره التى خلفها أينما حل وأداءه الباهر فى تمجيد الثقافة العربية باللغة الفرنسية على المسرح الدولى – ما بين أثينا ومدريد وبروكسيل ونيس وباريس وفلورنسه والبندقية وروما وأكسفورد وبيروت وتونس ومراكش – لأدركنا أن المعلم المصرى كان منارة شامخة تطل على البحر المتوسط لتنشر أنوار بلاده فى كل اتجاه.

الترجمة فى الثقافة العربية

يجد القارئ فى مقالة "تقرير السيد طه حسين عن ترجمة الروائع العالمية للعالم العربى" (انظر ص77-95) وثيقة مهمة ألفها طه حسين بالفرنسية على شكل "تقرير" عن مشروع لليونسكو كان يرمى إلى ترجمة بعض المؤلفات الكبرى إلى جميع اللغات بقدر ما يكون ذلك ممكنا. ولكن يبدو أن هذا التقرير الذى أعده طه حسين فى الخمسينيات من القرن الماضى، وقدم فيه اقتراحات وتوصيات بشأن تنفيذ المشروع وبخاصة فيما يتعلق باللغة العربية، لا يوجد له أثر فى محفوظات اليونسكو. أقول ذلك بعد البحث فيها، واطلاع على فهارس المنظمة المعلنة على الإنترنت. والتقرير بقدر ما أعلم لم ينشر، وظل مجهولا حتى وجدته مؤخرا بين مخطوطات طه حسين الفرنسية.

ولا مجال هنا لدراسة ما فعلته اليونسكو لتنفيذ مشروعها العظيم وما آل إليه منذ تلك الفترة. ولكن يكفى أن نلاحظ أن بعض اقتراحات وتوصيات طه حسين وجدت طريقها إلى التنفيذ فى إطار ما سمى سلسلة "الروائع العالمية" التى أشرف عليها فى فترة من الفترات الفقيد مؤنس طه حسين أثناء عمله موظفا فى اليونسكو. وما يعنينا الآن هو النظر فى آراء طه حسين عن دور الترجمة فى الثقافة العربية الإسلامية، فما زال لهذه الآراء أهمية نظرية، لأنها تعبر عن نزعة طه حسين الإنسانية ورؤياه لثقافة البحر

المتوسط كما شرحها فى كتاب *مستقبل الثقافة*. ولتلك الآراء أهمية عملية أيضا، إذ ينبغى أخذها فى الاعتبار فى أى مشروع معاصر للنهوض بالترجمة فى الثقافة العربية، دون تقيد بها بالضرورة.

والواقع أن الجانبين النظرى والعملى مرتبطان على نحو وثيق فى تقرير طه حسين الذى أعده بطريقة منهجية ينبغى إبرازها. وذلك أن التقرير يرتكز على عقيدة كانت اليونسكو وكان طه حسين يسلمان بها فى تلك الفترة، وهى أن الترجمة وسيلة أساسية للثقافة وتعبير عن وحدة العقل الإنسانى. وليس من قبيل المصادفة إذن أن طه حسين عندما يقرر التركيز على الترجمة فى حالة اللغة العربية يذكر بأن العمل فى هذا المجال لا يبدأ من فراغ، ويحرص على التأريخ لتراث الترجمة فى الثقافة العربية. وهو بناء على هذا الأساس التاريخى يقدم اقتراحاته وتوصياته فيما ينبغى عمله، ويضيف إلى الجزء الأساسى من تقريره أربعة ملاحق يبرز كل منها ما فى الترجمات الموروثة من أوجه النقص وطرق تلافيها.

وتراث الترجمة كما يشرحه طه حسين يشمل فى الواقع تراثين يشيد بكل منهما ويفترض أنهما وجهان للثقافة الإنسانية كما تحققت فى حالة اللغة العربية. التراث الأول هو منجزات حركة الترجمة فى الشرق، وهى الحركة التى استمرت طيلة أربعة قرون للهجرة، ونقل فيها المسلمون التراث الفلسفى والعلمى لليونان القديمة وشرحوه وجعلوه جزءا لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية، ثم عرفوا به أوروبا وأدرجوه فى صميم ثقافتها. وطه حسين يفترض بطبيعة الحال أن هذه الدورة الفكرية – من اليونان القديمة إلى الثقافة الإسلامية ومن ثم إلى الثقافة الغربية فى العصر الوسيط – هى لباب الفكر الإنسانى والقيم العالمية الخالدة كما تجسدت فى ثقافة البحر المتوسط.

أما التراث الثانى للترجمة فى مجال الثقافة العربية، فهو ما أنجزه المستشرقون فى الغرب منذ عصر النهضة. فهم فيما يرى طه حسين قد تعمقوا فى جميع فروع الثقافة الإسلامية بأدبها وفلسفتها وعلومها فى فترة عجز فيها المسلمون لأسباب تاريخية عن أداء هذا الدور. وهو يحرص فى هذا السياق على الإشادة بما حققه المستشرقون نيابة عن المسلمين فى مرحلة من مراحل تخلفهم. ويرى أن العالم العربى المعاصر مدين للمستشرقين الأوروبيين والأمريكيين بدين لن يتمكن أبدا من أدائه.

وهو يقدم توصياته العملية المفصلة بناء على ما يراه من أوجه القصور فى كلا التراثين. فلنترك للقائمين على أمر الترجمة مهمة النظر فى هذه التوصيات ما طبق منها وما لم يطبق وما يبقى جديرا اليوم بالتطبيق أو صالحا له، ولنتوقف قليلا عند افتراضات واهتمامات طه حسين الإنسانية. وسنلاحظ على الفور أنها لم تعد سائدة. لقد توارت "القيم الإنسانية الواحدة الخالدة" وأفسحت المجال لقيم أخرى تؤكد على الخصوصية والذاتية والتنوع الثقافى بل والصراع بين الحضارات. وفى حين أن طه حسين كان يؤمن بأن المستشرقين "علماء" لا يهدفون إلا إلى طلب الحقيقة المنزهة عن الغرض، ولا يرى فى أعمالهم عيبا سوى الإسراف والتدقيق والتوجه إلى المتخصصين دون عامة القراء، فإن الأصوات التى تحظى اليوم بالانتباه هى أصوات الذين يربطون حركة الاستشراق بالمصالح والمطامع الاستعمارية.

ولكنى أعتقد أن آراء طه حسين، إن كانت قد توارت اليوم وأصبح صداها خافتا، فإن من غير الممكن تجاهلها ولا بد أن تراعى فى أى محاولة ترمى إلى الفصل فى ذلك النزاع.

ويتألف "تقرير" طه حسين من جزء رئيسى وأربعة ملاحق تتضمن توصياته العملية وتتعلق على التوالى بالترجمة عن اليونانية واللاتينية، وعن لغات الشرق الآسيوى (الهندية والصينية)، وعن اللغات الأوروبية الحديثة، وبترجمات المستشرقين.

تصدير طه حسين لكتاب *الشفاء*

فى الخمسينيات من القرن الماضى أملى طه حسين بالفرنسية نصا ما زال مخطوطا، وكان الغرض من تأليفه أن يكون تصديرًا لكتاب *الشفاء* للشيخ الرئيس ابن سينا، وهو الكتاب الذى أريد نشره بمناسبة الاحتفال بالذكرى الألفية "لأمير الفلاسفة المسلمين" على حد تعبير طه حسين. إلا أن هذا التصدير لم ينشر. فقد ظهر المجلدان الأولان من الكتاب فى سنة ١٩٦٠ بتصدير كتبه بالعربية والفرنسية الدكتور إبراهيم مدكور. ولا ندرى لماذا حجب طه حسين مقالته وأفسح المجال لإبراهيم مدكور. وظلت المقالة مهملة بين مخطوطاته التى خلفها ولم تر النور حتى اليوم.

أما لماذا كتب طه حسين تصديرا بالفرنسية لكتاب مؤلف بالعربية، فالجواب عنه سهل. وذلك أن القائمين على أمركتاب *الشفاء* أرادوا له –كما أوضح طه حسين– أن ينشر فى طبعة علمية عصرية تتناسب مع مقام الشيخ الرئيس فى تاريخ الفكر الإنسانى وتُوجه إلى الباحثين فى مختلف أنحاء العالم. ومن هذا المنطلق أريد للنص العربى من الكتاب أن ينشر بتصدير فرنسى ليكون تحت تصرف المستشرقين، كما أريد أيضا أن تنشر الترجمة اللاتينية القديمة لكتاب *الشفاء* لتذكر العالم الغربى بمساهمة الثقافة العربية الإسلامية فى النهضة الأوروبية.

ومن حسن الحظ أن التصدير الذى كتبه طه حسين، إن لم ينشر، فقد نجا من الضياع، وجاء ليذكرنا بالأجواء والمطامح الثقافية التى سادت

الخمسينيات من القرن الماضى، العقد الذى شهد انطلاق الثورة الناصرية وامتداداتها فى مجال التوسع الثقافى والتوجه نحو العالم الرحب. وليذكرنا أيضا بأن هذه الثورة لم تحدث فى فراغ ولم تنشأ من العدم. بل عملت على استئناف مشروعات سبق التفكير والعمل فيها فى الأربعينيات، وجاءت تعبيرا عن مطامح وآمال عميقة الجذور فى روح مصر إذ تتطلع نحو استئناف دورها الحضارى على مسرح الثقافة العالمية.

وهناك بعض النقاط التى تسترعى الانتباه. فقد رأينا فى تقرير طه حسين عن مشروع اليونسكو لترجمة الروائع العالمية إلى كل اللغات كيف أنه رشح مؤلفين غربيين اثنين- هما شكسبير وموليير- للترجمة إلى اللغة العربية، وكيف رشح فى المقابل الجاحظ وابن خلدون وأبو العلاء للترجمة إلى اللغات الأخرى. وها نحن نراه فى التصدير التالى يؤكد مرة أخرى أن أبا العلاء وابن سينا جديران بالنشر على أوسع نطاق ممكن. لولا أنه فى هذه الحالة يرى أن الاهتمام بأمر هذين العلمين الأخيرين ينبغى أن يقع على عاتق العالم العربى.

ومن المؤكد أن طه حسين كان يرى أن نشر كتاب ابن سينا فى هذه الطبعة العلمية العصرية الموجهة نحو العالم امتداد لمبادرات أطلقها هو نفسه قبل الثورة وبعد قيامها لبسط نفوذ مصر واللغة العربية فى العالم. ومن ذلك افتتاحه لمعهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية فى مدريد (١٩٥٠)؛ وعمله على إنشاء كرسى محمد على فى المركز الجامعى بمدينة نيس، فرنسا (١٩٥٠). وكل ذلك كان تحقيقا لحلم ما فتئ يداعب خياله منذ كان طالبا فى الجامعة المصرية عندما كانت أهلية، وهو أن تعود اللغة العربية إلى سابق مجدها فتصبح من جديد لغة للإنسانية.

وعلى هذا الضوء يمكننا أن نقرأ تمجيد طه حسين للمثل العليا للتفانى فى طلب المعرفة والبحث العلمى، وسعادته بأن المشروع الذى أشرف على تنفيذه عابر للحدود نافع للجميع. ومن ثم كانت تحيته الحارة لمساعديه من أصدقائه وتلامذته الذين كرسوا جزءا من حياتهم فى بعث كتاب *الشفاء* ونشره على الناس مع إنكار كامل للذات ودون هدف سوى خدمة العلم والإنسانية.

المقارنة بين المعتزلة وليبنتز

جاء فى التقارير المنشورة عن دورة مؤتمر المستشرقين التى انعقدت فى أكسفورد فى سنة ١٩٢٨ أن طه حسين شارك فيها بورقتين بحثيتين بالفرنسية: إحداهما عن استخدام ضمير الغائب فى القرآن كاسم إشارة، والأخرى عن المعتزلة وليبنتز. وقد نشر طه حسين الورقة الأولى فى باريس فى طبعة محدودة ونادرة. ولكن أحد أصدقائى وجد لحسن الحظ نسخة منها فى مكتبة مدرسة اللغات الأفريقية والشرقية (لندن)، وأحالها إلىّ فنقلتها إلى العربية.(١)

أما الورقة الثانية، فلم أجد لها أثرا. فطه حسين لم يحرص على نشرها كما فعل فى حالة الورقة الأولى. ومؤتمر المستشرقين فيما علمت لا يحتفظ بنصوص الأوراق التى تلقى فى دوراته. وقد بحثت عن المقالة فى كل الأماكن المألوفة – دون جدوى. ولشد ما كان أسفى عندما انتهيت يائسا إلى أنها فقدت إلى الأبد مع ما فقد من كتابات طه حسين الفرنسية. وكيف لا أشعر بالأسف، والمقارنة التى عقدها طه حسين فى ورقته تلك بين المعتزلة وبين الفيلسوف الألمانى ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦) موضوع جدير بأن يثير اهتمام أى باحث فى مجال الفكر الإسلامى وتاريخ الفلسفة بصفة عامة؟ وقد خيل إلى منذ قرأت خبر المقالة أن إقدام طه حسين على تلك المقارنة مغامرة تنطوى على كثير من الجرأة، ومن المرجح أن تبوء بالفشل. فمن الجائز أن

---

(١) انظر كتاب طه حسين، *من الشاطئ الآخر* (القاهرة ٢٠٠٨) ص ١٣١-١٥٧

تعقد مقارنة بين الفيلسوف المذكور وبين فرقة أخرى من فرق المتكلمين المسلمين هم الأشاعرة. وذلك أن بين طرفى المقارنة فى هذه الحالة قاسم مشترك واضح هو أن كليهما ذهبا إلى أن العالم يتألف فى نهاية المطاف من جزيئات بسيطة لا تتجزأ: "الجوهر الفرد" فى حالة الأشعرية؛ و"المونادات" (الذرات الروحية) فى حالة ليبنتز. أما عقد المقارنة بين المعتزلة وليبنتز، فيواجه فيما بدا لى هوة لا تعبر.

فكيف استطاع طه حسين أن يعبرها – إذا كان قد عبرها؟ لن يجيب عن سؤالى المحير إلا أن أطلع على المقالة. ولكن المقالة لا أثر لها. وظل السؤال لسنوات طويلة معلقا دون جواب يلح علىّ فأنصرف عنه تارة ليعود إلى تارة أخرى – إلى أن اهتديت مؤخرا إلى المقالة كما أملاها مؤلفها على من طبعها على الآلة الكاتبة فى سنة ١٩٢٨. وجدتها بين أوراق طه حسين المهملة: ورقة صغيرة تتألف من أربع صفحات لا غير على شكل مسودة مؤقتة. ففى المتن فراغات بيضاء تركها المؤلف فيما يبدو ليدرج فيها مصطلحات عربية عند قراءتها على المجتمعين؛ وهناك إحالات مرقمة إلى مراجع لم تستكمل بياناتها كما ينبغى فى الحواشى.

وإنه لمن حسن الحظ أن الورقة قاومت مر الزمان ونجت من عبث العابثين. وجاءت إلينا لترينا طه حسين فى صورة غير مألوفة، ولتؤكد لنا مرة أخرى أن الرجل كان ثاقب النظر. فقراءة المقالة تثبت أن المقارنة بين المعتزلة وبين ليبنتز موضوع له وجاهته رغم شكوك الوهلة الأولى؛ وأن هناك بالفعل أوجه شبه لافتة بين الطرفين. ويسعدنى اليوم أن أضع هذه المقالة الثمينة مترجمة بين يدى القراء.

ولكن لماذا وقع اختيار طه حسين على ذلك الموضوع الكلامى الفلسفى الذى يبدو بعيدا عن اهتماماته الأدبية؟ يقول الكاتب فى الفقرة الأولى من المقالة إن الأفكار التى ترد فى كتابات ليبنتز مازالت تناقش فى الأزهر عند دراسة المعتزلة. وتذكرنا هذه الإشارة العابرة بأن طه حسين اطلع على تلك الأفكار وشهد ما يدور حولها من جدل عندما كان طالبا فى الأزهر يدرس علم التوحيد، وهو علم الكلام فى صورته الأزهرية. وتذكرنا أيضا بحقيقة مهمة أخرى نميل إلى نسيانها، وهى أن ذلك الجدل استقر فى نفس طه الطالب الأزهرى الفذ وظل يدور فى ذهنه على نحو أو آخر طيلة حياته وفى جميع مراحل تطوره ككاتب. مما يدل على ذلك أنه اختار أبا العلاء موضوعا للدراسة فى أول دكتوراه حصل عليها من الجامعة المصرية (١٩١٤). وأبو العلاء هو الشاعر "الحكيم" (الفيلسوف) الذى تصارع فى شعره مع تلك المسائل الكلامية الكونية.

وطه حسين عندما اختار ذلك الشاعر موضوعا للدراسة فصّل القول فى فلسفة أبى العلاء، وصدّر دراسته بمقدمة كلامية فلسفية يجد القارئ فيها مفاهيم مثل "الجبر" و"الاختيار" و"الكسب" (كما يقول الأشعرية)، ويرى فيها إعلان كاتبها صراحة أنه هو نفسه يؤمن بالجبر (فى التاريخ). غير أن ذلك الاهتمام المبكر بمثل تلك القضايا لم ينقطع بعد رسالة الدكتوراه، بل تغلغل فى أعمال طه حسين الأدبية وظل يتردد فيها بصورة أو بأخرى. فهو لا يكف عن زيارة أبى العلاء؛ ويؤثر شعراء "حكماء" مثل المتنبى وأبا تمام؛ ويركز على جانب المآسى من الأدب اليونانى القديم (وعلى قصة "أوديب" بصفة خاصة)؛ ويترجم قصة "زاديج" أو القدر لفولتير. ولا أبالغ إن قلت أن

طه حسين ظل طيلة حياته الأدبية ينوء بالمشكلات العلائية، ويتلمس ما يعلله ويعزيه عنها فى بعض رواياته مثل "أديب" و"دعاء الكروان" وفى سيرته الذاتية كما رواها فى "الأيام". ولا شك لدى فى أنه كان يتذكر دائما قول أبى العلاء: "عللانى فإن بيض الأمانى/ فنيت والزمان ليس بفان". وفكرة الزمان الذى لا يفنى التى ترد فى هذا البيت تشير إلى اتساع الكون اتساعا لا نهائيا يثقل على نفس الإنسان الزائل.

ولئن وجه طه حسين مقالته التى نحن بصددها إلى باحثين متخصصين وكتبها بأسلوب علمى مجرد، فإن المقارنة التى يعقدها بين المعتزلة وليبنتز تمثل عودة إلى اهتماماته الكلامية الفلسفية الدائمة وتؤكد حضورها المستمر. ولقد أصاب تماما عندما استند فى مقارنته تلك إلى كتاب ليبنتز *مقالات فى الثيوديسى*. و"ثيوديثى" كلمة صكها ذلك الفيلسوف لكى تعنى "دفاع عن عدل الله". ويذكرنا طه حسين بأن المعتزلة كانوا يتسمون بأهل التوحيد والعدل. وهو يجمل أوجه الشبه بينهم وبين ليبنتز فى نقطتين أساسيتين، هما دفاع الطرفين كليهما عن وحدانية الله (فصفاته هى عين ذاته)، وعن عدله (الذى يستتبع بالضرورة القول بحرية الإنسان).

إلا أن أقوال طه حسين فى بيان أوجه الشبه بين طرفى المقارنة تستدعى مزيدا من الشرح والتوثيق. فقد كتب مقالته بإيجاز شديد وبلغة مجردة، واكتفى بالتركيز على بعض النقاط الرئيسية تاركا لغيره فيما يبدو مهمة البحث المفصل. والواقع أن وجاهة المقارنة تحفز بالفعل على مواصلة البحث. ومما يدل على ذلك أن باحثا إيرانيا معاصرا يدعى عمرو الله معين نشر مؤخرا بحثا عنوانه "مقارنة بين آراء المعتزلة وليبنتز فى العدل الإلهى"

(انظر مجلة *إلهيات تطبيقى* الصادرة عن جامعة أصفهان، المجلد ٩، سبتمبر ٢٠١٣).[١]

ويبقى بعد ذلك سؤال طرحه طه حسين ولم يجب عنه، وهو ما إذا كان المعتزلة قد أثروا على ليبنتز من خلال الفلسفة المدرسية المسيحية. وهو سؤال شيق، ولكن تعترض الإجابة عنه صعوبات بالغة. فمن المؤكد أن أفكار المتكلمين المسلمين نفذت إلى تلك الفلسفة. ولكن المشكلة التى طرحها المعتزلة وطرحها ليبنتز – وهى التوفيق بين وجود الشر وبين وجود الله وكمال صفاته وعدله – موضوع تناوله كثير من الفلاسفة وعلماء اللاهوت المسيحيين السابقين على ليبنتز، بل والسابقين على ظهور الإسلام، ومن بين هؤلاء القديس أوغسطين(٣٥٤ – ٤٣٠ م). وقد يكون للمعتزلة رغم كل شيء إسهام ما فى التراث الفكرى الضخم الذى وصل إلى ليبنتز، ولكن ليس من السهل التأكد من ذلك الإسهام فى مثل تلك المتاهة المتشابكة.

وقد يكون من الأجدى أن تعقد مقارنة واسعة النطاق بين المعتزلة وخصومهم الأشاعرة من ناحية وبين علماء اللاهوت المسيحى وما دار بينهم من جدل فى مواجهة مشكلة الشر والعدل الإلهى من ناحية أخرى، مع تحديد وتفسير أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بين الجانبين. وقد خطا طه حسين خطوة مهمة فى هذا الاتجاه عندما أشار إلى الجدل الذى دار فى نطاق

---

(١) عرفت ذلك عن طريق الإنترنت. كما علمت بنفس الطريقة بوجود كتاب عنوانه *العدل الإلهى: دراسة فى فكر ليبنتز والمعتزلة*، ألفه أمل مبروك وصدر عن الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٨. ويدل كل ذلك على أن طه حسين هو الذى ارتاد البحث فى هذا المجال. (م)

الجانب الإسلامي وما يناظره من جدل بين ليبنتز وأحد معارضيه. ومن شأن هذه المقارنة أن تنبهنا - بصرف النظر عن قضية التأثير والتأثر - إلى حيوية الفكر الإسلامي وأهميته الدائمة بالنسبة لدراسة الأدب - بما في ذلك أدب طه حسين - ولدراسة الفلسفة المدرسية الأوروبية ودور الفلسفة الإسلامية في نشأة الفلسفة الأوروبية الحديثة.

قوة القرآن مشروحة لغير المسلمين

لعل أهم مخطوطات طه حسين التى عثرت عليها مقالة أملاها بالفرنسية على من كتبها على الآلة الكاتبة عن قوة القرآن من الناحية الصوفية مشروحة لغير المسلمين (انظر ترجمة المقالة فيما يلى: ص 107-123). وهى تتألف من ٢١ صفحة - فقدت منها للأسف ثلاث صفحات (الثامنة والتاسعة والعاشرة) - وتحمل كثيرا من التصويبات التى كتبت بخط اليد. وهى غير مؤرخة، وليس من السهل أن نستنتج من محتواها تاريخ كتابتها لأنها ذات طابع نظرى ولا المناسبة التى كتبت من أجلها ولا أين كان يراد نشرها أو إذاعتها فى صورتها النهائية. كل ما نعرف فى الوقت الحاضر هو أنها كانت موجهة لغير المسلمين وللأوروبيين بصفة خاصة.

وقد تصرفت قليلا فى ترجمة العنوان الفرنسى الذى يمكن أن يترجم حرفيا فيقال "قوة القرآن الصوفية مشروحة لغير المسلمين". وهو عنوان يبدو أن طه حسين لم يكن راضيا عنه لأنه مشطوب وإن كان ما زال مقروءا. ومن المستبعد أن يكون الشطب قد حدث بدون موافقة طه حسين. أما لماذا رأى أن هناك حاجة إلى إعادة كتابة العنوان، ولماذا لم يعد كتابته، فهذان سؤالان لا نستطيع الإجابة عنهما على وجه اليقين. فربما كانت هناك مسودة أخرى تحمل العنوان الجديد ولكنها ضاعت؛ أو لعل طه حسين لسبب أو لآخر لا نعرفه أهمل الموضوع برمته وطرح المقالة جانبا كما كانت على حالتها الأولى.

ومع ذلك فمن المؤكد أن هذه المقالة فريدة عظيمة الأهمية فى كتابات طه حسين وفى كل ما كتب عن القرآن الكريم. فلطه كتابات وتعليقات أخرى عن لغة القرآن. ولعل أبرز هذه الكتابات تلك الدراسة التى تتناول استخدام ضمير الغائب فى القرآن كاسم إشارة.[1] إلا أنها دراسة نحوية جافة موجهة إلى الأخصائيين. أما المقالة التى تعنينا هنا، فهى مقالة عن بلاغة القرآن أو "إعجازه"، أو لنقل عن جماليات النص القرآنى والجانب الصوفى فيه. وهى ليست بالدراسة السهلة ولكن يستطيع القارئ المستنير أن يستمتع بقراءتها ويفيد منها على قدر طاقته. وسيلاحظ هذا القارئ على الفور أنها عظيمة الجرأة والأصالة وباهرة. ترجع جرأتها وأصالتها إلى أن كاتبها يواجه فيها تحديا صعبا، وهو شرح جمال لغة القرآن وقوة تأثيرها لجمهور يجهل العربية ويعجز عن تقديرها ولفئة من الكتاب الأوروبيين لا يبدون تعاطفا مع القرآن الكريم بسبب خلوه من التسلسل المنطقى وكثرة التكرار فيه واستخدامه للسجع. وأحسب أن الدراسة بناء على ما تقدم بغير نظير فى أى لغة.

يضاف إلى ذلك أن مؤلف الدراسة يقدم فيها نظرية يرى أنها جديدة – وهى كذلك – يفسر بها كيف سيطر النثر القرآنى – أدب القرآن – على قلوب العرب وعقولهم وأشعل فيهم ذلك الحماس الذى جعل منهم فى غضون ثلاثة عقود قوة ضاربة فى مشارق الأرض ومغاربها. فهذه الحقيقة – أى قدرة القرآن بفضل بلاغته على توحيد العرب وتحريكهم نحو ذلك العمل الجليل – هى المعجزة القرآنية فى نظر طه حسين. وتقوم النظرية الجديدة على مفهوم أساسى هو "التشكيل". وهو مفهوم صكه طه حسين ليتجاوز به

---

(١) انظر كتاب طه حسين، من *الشاطئ الآخر* (القاهرة ٢٠٠٨) ص ١٣١–١٥٧

فيما يبدو مفهوم "النظم" عند عبد القاهر الجرجانى. فالتشكيل لدى طه حسين مختلف عن الأسلوب لأن الأسلوب كما يقول ثمرة للذكاء وتراكم التجارب وتطور المعرفة، فى حين أن التشكيل الممتاز يظهر فى شباب اللغة قبل أن تتحدد معانى الألفاظ وتتضح علاقاتها بالأشياء وقبل أن ينفصل البشر عن وسطهم. والتشكيل فكرة مركبة تشمل نظم الألفاظ والعبارات وتشكيل المكان (مثله مثل التصوير والنحت والعمارة) وتشكيل الزمان (مثله مثل الموسيقى)، وهو فى حالة العرب ينطوى على منطق خاص بهم ليس هو منطق العلم والرياضيات وأهل الحضارة والمدن، بل هو منطق الصحراء فى امتدادها وجفافها وتعرج دروبها وتناثر واحاتها ونفوس سكانها المترحلين فيها وعقولهم. وطه حسين يتطرق فى هذه السياقات إلى فنون يعرفها بسمعه مثل التلاوة والتجويد والإنشاد والموسيقى بصفة عامة. أما الشيء المذهل حقا والمثير للإعجاب فهو أنه يتعرض أيضا للفنون البصرية التى تعتمد على تشكيل المكان، ولا يكتفى بإشارات عامة بل يضرب أمثلة محددة من تاريخ الفن مثل رافائيل ورمبرانت، ويرجع إلى تقاليد وتيمات (مثل تصوير السيدة مريم العذراء)، وتقنيات فنية بعينها (مثل النقوش البارزة). ومن اللافت للنظر أن طه حسين وقد حاول تفسير التشكيل القرآنى على أساس من التاريخ والوسط (البيئة) وتضاريس الأرض وخصائص الشعوب وأساليب الصنعة البشرية يختتم دراسته الفذة بنتيجة يعرب فيها عن شعوره بأن نظريته، إن وضحت بعض جوانب الإعجاز فى القرآن، فإنها لا تستوعبه، وبأن الأمر ما زال ينطوى على سر، وبأنه ينبغى التسليم فى نهاية المطاف بأن القرآن لا بد أن يكون وحيا إليها.

ويضيق المقام هنا عن تحليل وتقييم هذه النظرية المبتكرة، ولكن أقل ما يقال فيها الآن إنها جديرة بالنظر الفاحص والتأمل العميق من جانب المعنيين بدراسة طه حسين، والأخصائيين فى مجالات البلاغة وتاريخ الفن وعلم الجمال. ونظرا لأن الدراسة كما وصلتنا تخلو للأسف من بعض صفحاتها، فقد قسمتها إلى مقتطفين أرجو ألا تخل التفرقة بينهما بالوحدة الأساسية للنص. فالمقتطف الأول يعرض ظاهرة الإعجاز كما تتجلى فى حركة التاريخ وفى حياة النبى، بينما يتضمن المقتطف الثانى محاولة طه حسين تفسير الظاهرة بناء على مفهوم التشكيل – بداية من التشكيل فى اللوحات الفنية، أو لنقل فى مجال التصوير والرسم.

ترجمة مخطوطات طه حسين
الفرنسية

خطاب موجه إلى وزير تركي[١]

السيد الوزير،

تلقيت منذ بضعة أيام الخطاب الذى تفضلت سعادتكم بكتابته لى فيما يتعلق بتصريح كنت قد أدليت به لمجلة جديدة وترجمته [جريدة] *La Bourse*.

اسمحوا لى أولا بأن أشكر سعادتكم بكل إخلاص على الكلمات الطيبة التى توجهونها إلى وعلى حسن رأيكم في.

ولتطمئن سعادتكم: فإنى عندما أدليت بتصريحي لم أرد التقليل من شأن أحد أو أن أجامل أحدا. ولم يدفعنى إلى قول ما قلت إلا الحرص على الحقيقة التاريخية.

وليس لدى ما يكفى من الكفاءة ما يؤهلنى لمناقشة وضع البلدان التي تذكرونها سعادتكم في آسيا وفى أفريقيا وفي أوروبا، ولكنى أعلم أننى فيما يتعلق بمصر قلت الحقيقة الصادقة. فقبل الغزو العثماني كان بلدنا يتمتع باستقلال تام سمح له بإقامة علاقات دبلوماسية، واقتصادية، بل وعلمية مع

---

(١) هذه المخطوطة ليست سوى مسودة لخطاب كتبت وصوبت بخط اليد، وذلك ردا على خطاب تلقاه طه حسين من وزير تركى فى المفوضية التركية فى القاهرة، ويجد القارئ ترجمة هذا الخطاب الأخير فى الملحق الأول للكتاب. والمخطوطة غير مؤرخة، ولكن لنا أن نفترض أنها كتبت فى تاريخ قريب من تاريخ خطاب الوزير التركى، وهو ٥ مايو ١٩٤٥. ومن الملاحظ أن كل صفحة من الصفحات الأربع التى تتألف منها هذه المخطوطة تحمل ختما عليه رسم يشبه أباجورة (أو شجرة؟). فهل كان طه حسين يستخدم ذلك الختم بدلا من التوقيع؟ (م)

أوروبا المتوسطية. وكانت حضارة بلدنا مزدهرة، وتولت القاهرة في العـــالم الإسلامي دور الإسكندرية في العالم الهلنستى، وكانت جامعة الأزهر لـــدينا والمدارس التى أنشأها السلاطين المماليك في كل مكان تقريبـــا تلعـــب دورا يشبه إلى حد كبير دور متحف البطالمة. والغريب فى الأمر أن نهضة علمية وأدبية وفنية فى مصر خلال القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر كانت موافقة للنهضة الأوروبية الأولى. ومن المحتمل تماما أن مصر كان يمكنها بدون الغزو العثمانى أن تشارك في النهــضة الأوروبيـــة الثانية في العصر الحديث.

وإذا طلبتم سعادتكم إلى تقديم أدلة على ذلك، فإنى أرجوكم أن تنظروا إلى آثار القاهرة لتلك الفترة وأن تروا أن مصر في تلك الفترة علـــى وجـــه التحديد أعطت العالم الإسلامى مـــصنفاتها الأنـــسكليوبيدية الرائعـــة التـــى استطاعت، بجمعها حصيلة المعرفة الإنسانية فى هذا الفرع أو ذاك من فروع الحياة الفكرية، أن تصون تراث الحضارة العربية.

ويكفينى أن أذكر القلقشندى والنويرى والعمرى والمقريزى لكى أثبت أن مصر فى ظل السلاطين المماليك صانت ونقلت إلـــى أجيـــال المـــسلمين خلاصة ما أنتجه العقل الإسلامى خلال سبعة أو ثمانية قرون من التاريخ.

يضاف إلى ذلك أن هناك ظاهرة ثابتة في تاريخ مصر، وهى أن مـــن المستحيل بالنسبة لها أن تنتج شيئا مهما في حياة العقل إذا لم تتمتع باستقلال فعلى بدرجة أو بأخرى.

وهى عندما تخضع لسيطرة أجنبية تصاب بالإنهاك فى كفاحها من أجل الحرية. وهو كفاح يستنفد طاقتها بصفة تامة تقريبا.

فهى فى ظل السيطرة الفارسية وفى ظل السيطرة الرومانية لم تعط أى شيء مهم تقريبا. أما عصر البطالمة فكان فترة من الخصوبة المثيرة للدهشة. فمصر تحت حكم البطالمة كانت حرة، كان لـــديها ملوكهـــا، وعاصـــمتها، وجيوشها البرية والبحرية. وهناك نفس الظاهرة في العصر الإسلامى؛ ففـــى ظل خلافة المدينة ودمشق وبغداد كانت الحياة الفكريـــة المـــصرية متدنيـــة تقريبا، ولكنها ما إن استعادت قدرا من استقلالها مـــع مجـــيء الطولـــونيين والإخشيديين حتى بدأت تصبح عاملا أساسيا في حيـــاة العقـــل الإســـلامى. وأخذت مصر مع وصول الفاطميين والأيوبيين والمماليك تستعيد اســـتقلالها الكامل وتبسط سيطرتها خارج حدودها، وأصبحت القاهرة على الفور منافسا شديد الخطر لبغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب. وعندما وقعت بغداد تحت ضربات المغول ووقعت قرطبة تحت ضربات مـــسيحيى إســـبانيا، بقيـــت القاهرة وحدها هى العاصمة الفكرية للعالم الإسلامى.

ثم يصل الأتراك العثمانيون فتنحدر مصر إلـــى مرتبـــة إقلـــيم فـــى الإمبراطورية التركية كما كانـــت إقليمـــا فـــي الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة والإمبراطورية الرومانية. وترتد من ثم إلى حالة التدنى.

ومع مجيء القرن التاسع عشر تستعيد مصر شيئا فـــشيئا اســـتقلالها وتسترجع فى نفس الوقت شيئا فشيئا حياة عقلية نشطة.

وهكذا ترون سعادتكم أننى عندما أدليت بتصريحى لم أفعل شيئا سوى أننى لاحظت ظاهرة ثابتة فى تاريخ أمتنا، ولا شيء غير ذلك.

وعلاوة على ذلك ألا تعتقدون سعادتكم أن مـــن المستحـــسن دراســـة التاريخ بروح موضوعية بقدر الإمكان؟

فذلك مما يرضى العقل والقلب فى آن واحد، إذ يعطى أحدهما متعـــة تأمل الحقيقة ويخلص الآخر من كثير من الأفكار المسبقة التى تصيب بنـــي الإنسان بالشر أكثر مما تقدم لهم من الخير.

وأنا إذ أكرر شكرى أرجوكم أن تتقبلوا... فائق احترامى.

طه حسين

مشكلة الشرق

بقلم الدكتور طه حسين بك

المشكلات الخطيرة التى تواجه انتباه العالم لا تقتصر علــى أوروبــا. فللشرق أيضا مشكلاته التى لا تقل خطرا ولا أهمية بالنسبة للتعاون الدولى.

وذلك أن الحياة الدولية لا تقوم ولا يمكن أن تقوم على العزلــة أو علــى تقسيم العالم إلى أجزاء، بل تقوم بالعكس على تكافل المصالح، وتبادل الخــدمات، وتشابك الأهداف. وهو ما يعنى أن ظهور أى اضطراب أو ضعف فى أى جزء من أجزاء العالم الفسيح له عواقبه التى تتفاوت عمقا على العالم بأسره.

والمسألة الخطيرة التى تثور اليوم هى ما يلى: كانت العلاقات التى نــشأت فى العصر الحديث بين الشرق والغرب تقوم على أن الشرق ضعيف ومتخلــف وأن الغرب قوى وذكى وداهية وحاذق فى فن الاستغلال بقدر ما يريد.

ولكن الأمور تغيرت كثيرا منذ القرن الماضى؛ وتسارع هذا التغييــر بسبب الحرب العالمية الأولى بحيث لم يعد من المسموح به اليوم تجاهلــه أو عدم أخذه بالحسبان.

فى القرن الماضى كان انتباه أوروبــا مركــزا علــى الإمبراطوريــة العثمانية التى كانت تنبسط على ثلاث قارات. وكان الشرق حينــذاك وحــدة يمثلها الباب العالى. وكانت القوى الأوروبية تنقسم وفقا لأطماعها ومصالحها حول "الرجل المريض".

ولكن لم يعد يوجد بعد الحرب العالمية الأولى رجل مريض يمكن التنازع حوله. بل كان هناك منذ ذلك الحين عدة وحدات قومية تكافح من أجل تحقيق حقوقها واستعادة استقلالها. وكانت تركيا إحدى هذه الوحدات وأهمها. وقد كذبت نبوءات أوروبا فاستطاعت أن تخسر امبراطوريتها وأن تحيا رغم ذلك حياة قوية ورخية ومحاطة باحترام كل القوى.

تخلصت تركيا من جميع الجراثيم القديمة للمرض أو الضعف ونهضت بعد هزيمتها وهى أشد حيوية من أى وقت مضى. فقد دفعت الغازى، ورفضت معاهدة سيفر وأرغمت الغرب على أن يوقع معها على معاهدة لوزان. ثم استطاعت أن تثبت للغرب أنها بعد استرداد حدودها الطبيعية وتجديد مؤسساتها ما زالت عنصرا مهما فى التوازن الدولى. وقد رأينا أوروبا عندئذ تدخل فى مفاوضات معها على موضوع المضايق ثم تتنازع على التحالف معها عشية الحرب العالمية الثانية. ثم رأينا أخيرا تركيا وقد اتبعت فيما بين ألمانيا وبين أعدائها الموقف الذى يعلم الجميع أنه يتميز بالنشاط والحزم والمرونة.

غير أن من المؤكد أن الغرب توقع أن الإمبراطورية التى تخلت عنها تركيا سيجرى تقاسمها كغنيمة من غنائم الحرب بين القوى المنتصرة.

ولكن الأحداث كذبت مرة أخرى هذه التوقعات وأثبتت أن الشعوب التى كانت تتألف منها هذه الإمبراطورية تريد استعادة استقلالها.

والعالم أجمع يعرف كيف ثارت مصر وكافحت حتى حصلت على جزء من هذه الحقوق وهى اليوم لا تفتأ تطالب بما ينقصها؛ وكيف سلكت

سوريا ولبنان والعراق نفس الطريق؛ وكيف تطورت العربية السعودية حتى أصبحت مستقلة.

ثم كانت الحرب العالمية الثانية.

واتبعت أوروبا بإزاء الشرق العربى موقفا جديدا. فقد سعت إلى الاقتراب منه وإلى أن تكون محبوبة لديه؛ وهى لذلك تغدق عليه الوعود.

والحقيقة هى أن أوروبا لم تنجح فى معرفة عقلية شعوب الشرق؛ فقد ظلت تعتقد أن باستطاعتها أن تقدم لها الوعود ولا تفى بها دون جزاء؛واعتقدت أن الشرق ينسى بسهولة. هذا فى حين أن ثورات هذا الشرق فيما بين الحربين العالميتين كان ينبغى أن تثبت أن هذه الشعوب ما زالت تطالب بالوفاء بالوعود التى قدمت لها وأنها لا تهن قط فى عملها [من أجل ذلك].

إلا أن أوروبا ما زالت تواصل فى الشرق سياسة الوعود التى تقدم اليوم لكى تنسى غدا. وينبغي للشرق تذكيرها بأن هذه السياسة صارت بالية وبأن العلاقات بين الشرق والغرب يجب أن تقام من الآن فصاعدا على أسس جادة.

والأحداث التى وقعت فى سوريا ولبنان هى الدليل على أن الشرق العربى قرر ألا يكون استقلاله كلمة فارغة من المعنى وأن حقوقه ليست موضوعا للتحايل والمناورات.

والأوروبيون من ناحية أخرى ينظرون إلى جامعة الدول العربية بكثير من الشفقة والاستعلاء، بل وبشيء من الازدراء.

ولكن الأحداث أثبتت للأوروبيين المعقولين أن الشعوب العربية جادة لا تهذر. وأنها لم تنشئ الجامعة العربية لكى ترى فيها صورتها كما تراها في مرآة، ولكن لكى تستعيد حقوقها وتحقق مطامحها.

ومن الصحيح إلى حد ما أن حكومات البلدان العربية لا تعلق على الجامعة العربية من الأهمية ما تعلقه عليها الشعوب العربية، ولكن لا ينبغي أن ينسى أن الحكومات تتغير وتبقى الشعوب.

ومن المؤكد أن جميع الشعوب العربية تؤمن إيمانا عميقا بما يلي: ١) حقها فى الاستقلال؛ ٢) ضرورة تعاونها وبأنها لن يهدأ لها بال بشأن مصيرها إلا عندما تفضي بأوروبا راضية أو راغمة إلى الاعتراف بحقها فى الكرامة والحرية والاستقلال.

وليس ثمة شك فى أن أوروبا ستواصل خداع نفسها بل وخداع شعوب الشرق لفترة تطول أو تقصر. ولكن ليس ثمة شك أيضا فى أن أوروبا سواء رضيت أم لم ترض سينتهى بها الأمر إلى مواجهة الواقع والاقتناع بأن التحايل لا يجدى شيئا.

ومن الواضح أن لأوروبا أطماعا ومصالح فى الشرق العربى. فالشرق العربى فى واقع الأمر يقع على طريق امبراطوريات استعمارية مختلفة؛ وأنه بالإضافة إلى ذلك يحتوى على كنوز تعرفها أوروبا تماما ولا يمكن أن تستغنى عنها؛ وأن أوروبا مارست على هذا الشرق سيطرة لن تتخلى عنها بسهولة.

ولكن أوروبا ستعرف تماما – إن لم تكن قد عرفت – أن جميع مصالحها يمكن أن تكفل لها على أساس من الصداقة والتعاون، وأن هذه المصالح ستتعرض بصفة خاصة للخطر إذا هى سعت إلى ضمانها بالقوة والسيطرة.

وستعرف أوروبا أخيرا – إذا لم تكن تعرف بالفعل – أن من الممكن خسارة بعض الأشياء وأنه يجب التعزى عن خسارتها إذا كانت طبيعة الأشياء تقتضيها، وأن السيطرة واحدة من تلك الأشياء، وأن أوروبا سيطرت خلال فترة على الشرق وأن سيطرتها بسبيلها إلى الاختفاء وأنها ستختفى تماما.

ومن الأفضل بالنسبة لأوروبا أن تتكيف مع العالم الجديد وأن تقيم علاقاتها مع الشرق على أساس التعاون المخلص الذى يرتكز على الصدق والصراحة وليس على الحيلة والخيانة.

وهذا التعاون هو الذى سيضمن أمن الاتصالات وأفضل استغلال للكنوز لتحقيق أعظم الفائدة للشرق والغرب كليهما.

ومشكلات الشرق لا تقتصر على أي من القوى العظمى ولا على الدول العربية جمعاء.

فهناك مشكلات بين روسيا وتركيا، ومشكلات أخرى بين روسيا وإيران. ولكل من بريطانيا العظمى وأمريكا رأي يخصها بشأن هذه المشكلات.

وليس المهم أن يفرض أحد أو آخر رأيه بل أن تحترم حقوق تركيا وإيران من جانب جميع القوى لتحقيق أعظم الفائدة للعالم أجمع.

وقد يقال نفس الشيء عن العلاقات بين الشعوب العربية والقوى الكبرى.

فلبريطانيا العظمى مشكلات ينبغى حلها مع مصر والعراق: فهنا احتلال عسكرى ينبغي أن ينتهى، وهناك وصاية قديمة ينبغى اختفاء آخر آثارها.

ولفرنسا أيضا مشكلة ينبغى حلها مع سوريا ولبنان. ويجب عليها أن توجد للمشكلة حلا نهائيا وجادا لا يشوبه سوء نية ولا تحفظ مضمر.

أما أمريكا فلها مرام ومصالح اقتصادية في جميع البلـــدان. ويجـــب عليها أن أن تحقق مراميها ومصالحها على أساس الصداقة وتوازن الحقوق.

وتتطلع روسيا بدورها من وقت إلى آخر إلى الشرق العربى؛ وينبغى لنظراتها أن تكون خالصة وبمنأى عن كل شك.

ويتعين على جميع القوى الكبرى أن تقتنـــع بأنهـــا ترتكـــب خطـــأ سيكولوجيا جسيما إذا اعتقدت أنها تستطيع استئناف تنافسها حـــول الـــشرق العربى. فقد ولى زمن هذا التنافس بغير رجعة.

وهناك أخيرا مسألتان خطيرتان تستدعى إحداهما اليوم انتباه العـــالم أجمع وتفرض الأخرى نفسها على انتباهه بين حين وآخر.

وهاتان المسألتان يجب أن يتلقيا حلا نهائيا يعيد الثقة بين الشرق والغرب.

الأولى هى مسألة فلسطين. فلنلاحظ أن المشكلة الفلـــسطينية مـــشكلة خلقها الغرب برمتها نتيجة لسياسة الوعود المذكورة غير المدروســـة التـــى مارستها بريطانيا العظمى خلال الحرب الأخرى. فقد عاش العـــالم لقـــرون بسلام مع وجود فلسطين عربية.

والحرب الأخيرة هى التى أنجبت الفكرة الشيطانية التى تـــؤدى إلـــى تدهور العلاقات بين الشرق والغرب.

وينبغى على الذين خلقوا هذه المشكلة على نحو مصطنع أن يقـــدموا لها حلا وأن يخلصوا العالم من هذا الكابوس.

فلقد كانت فلسطين دائما عربية، وهى ما زالت عربيـــة. وينبغـــى أن تبقى كذلك. ويجب أخيرا أن تحكم نفسها كما تريد وليس كما تريد لها قوة أو أخرى من أوروبا أو أمريكا...

والمسألة الثانية هي مشكلة شمال أفريقيا.

الشرق العربي لا ينتهي عند الحدود المصرية. بل ينتهي عند المحيط الأطلسي. فهكذا نظرت إليه أوروبا في العصر الوسيط وفي العصر الحديث.

وهكذا نظرنا إليه منذ أن أقام العرب في شمال أفريقيا في نهاية القرن الأول للهجرة.

وهكذا ننظر إليه نحن اليوم.

إن هذا الجزء الذي لا يتجزأ من الشرق العربي يخضع اليوم – كما خضعنا نحن أنفسنا – للسيطرة الأجنبية. وتحركه نفس التيارات التي نراها عندنا: الحيوية، والوعي بحقه في الكرامة والاستقلال. ونحن نشاركه عواطفه ونطالب له بنفس الحقوق التي نطالب بها لأنفسنا.

ونحن نرى أن مشكلات الشرق لن تحل طالما لم تحل مشكلة شمال أفريقيا.

ونحن نرى أن الجامعة العربية لن تكتمل ما لم يكن لذلك الجزء من العالم العربي مكان فيها.

وخير ما تفعله أوروبا هو أن تنظر في جميع هذه المشكلات، ومن نفس الزاوية التي ننظر منها وأن تقدم لها الحلول التي نقترحها على أساس من حسن النية والصدق والتعاون.

وهنا أيضا تستطيع أوروبا أن تخادع نفسها وأن تحاول مخادعة الغير. وستكون عندئذ هي أول من يعاني من جراء ذلك. وأفضل ما تفعله هو أن تستبق الأحداث وأن تقيم علاقاتها مع الشرق على أساس من الصداقة والأخوة.

فإذا أصرت أوروبا على تجاهل هذه الحقيقة، فإن علينا أن نتحلى بالحزم وأن نقتنع بأن مشكلاتنا مهما بدت متباينة ومتفرقة تؤلف في الأساس مشكلة واحدة لا غير.

إن العالم الجديد لا يمكن أن يشيد إلا إذا كان الجانب العربي من البحر المتوسط يتمتع بنفس الاستقلال المعترف به اليوم للشعوب التي تحيا على جانبه الأوروبي دون غيرها.

وما لم تتحقق هذه المساواة لن تكون هناك علاقات ثابتة بين الشرق والغرب ولا سيما أنه أصبح من الظاهر بوضوح أن عهد السيطرة على هذه البلدان العربية قد انتهى منذ أمد بعيد.

طه حسين

خطاب طه حسين فى جامعة أثينا
بمناسبة منحه الدكتوراه الفخرية

السيد مدير الجامعة، السيد الرئيس، السيد وزير التعليم الوطنى، أصحاب السعادة، سيداتى وسادتى

أنا فى حاجة إلى فصاحة أثينية حقا، فصاحة خطيبكم العظيم إيزوقراط مثلا، لكى أعرب عن شعور الشكر والامتنان الذى يفعم قلبى منذ أن وصلت إلى اليونان.

شعور بالامتنان والشكر لجلالة ملكى اليونان على العناية السامية التى أحاطانا بها أنا وزوجتى، وإعراب عن امتنانى لجلالة ملك اليونانيين لما أحطت به من تميز شخصى.

ويجب على أن أشكر الحكومة اليونانية على كل علامات المجاملة والعطف التى أبدتها نحونا أنا وزوجتى.

أما فيما يتعلق بجامعة أثينا والشرف الذى أنعمت به على للتو بمنحى الدكتوراه الفخرية، فينبغى لها أن تعلم أن طريقة الشكر المتبعة فيما بين العلماء هى تقديم تعاون مثمر ومفيد يعود بالخير على الإنسانية.

وهى أن أعرب لكم عن الانفعال الذى يتملكنى لأننى أحقق الشيء المحال إذ أتكلم فى المكان الذى تكلم فيها أساتذة الإنسانية منذ أكثر من

عشرين قرنا. فالكلام حيث تكلم سقراط وأفلاطـون وأرسـطو وديموسـتين وإيزوقراط هو أمر من قبيل الحلم.

ليس هناك من بلد يستطيع أن يقول ما استطاعت اليونان ومصر قولـه عن صداقتهما الألفية. فنحن نعرف أحدنا الآخر، نحن نتعاون، لا منذ قـرون بل منذ عشرات القرون. وخلال هـذه الآلاف مـن السنين تعـرض كـلا الصديقين لعدة انتكاسات، وأحرزا أمجادا عدة. لقد تعاونا معـا. وتـصارعنا أحيانا. وتعارفنا قبل التعارف مع بلدان الأخرى. ولم يكن لتعاوننا من حدود. وكانت لغتكم خلال عشرة قرون هى اللغة الرسمية لمصر منذ الإسكندر حتى وصول الإسلام إلى ضفاف النيل؛ وكانت ثقافتكم هى الغذاء الروحى لمـصر منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى اليوم وستظل كذلك دائما. وبوسع مصر أن تفخر بأنها حفظت للإنسانية كنوز الأساتذة الكبار لكى تعيدها فـى العـصور الحديثة لا بوصفها مصادر لمتع الخاصة أصحاب الذوق الثقافى الرفيع، بـل كمبادئ أساسية للحياة.

وافترقت مصر واليونان. فأصبحت مصر مـسلمة، وبقيـت اليونـان مسيحية. وكان الصراع قاسيا ضاريا، ولكنه كان خـصبا بالنـسبة للتـاريخ والآداب والفن ويقظة البشرية. وتحارب العرب واليونانيون. ولكن العرب فى فترات الهدوء أتوا إلى بيزنطة بحثا عن كتب الأسـاتذة الكبـار لترجمتهـا، وشرحها، ونشرها، وللسماح لهؤلاء الأصدقاء الأعداء، إذا صح استعمال هذه العبارة المتناقضة، بالتعارف والتفاهم، ولصنع وحدة العـالم الروحيـة عـن طريق هذه المعرفة وهذا الفهم. وبفضل هذا الصراع بـين العـالم العربـى والعالم البيزنطى أصبح لنا شعراء كبار مجدوا انتصار أمرائهم وأشادوا به...

وبدون هذا الصراع ما كان ليوجد لدينا أبو تمام، وبدونه لما كان ليوجد لـــدينا المتنبى. وبدون هذه الثقافة، وهى ثمرة علاقات الحرب والسلام بيننا، ما كان ليوجد لدى العالم العربى أبو العلاء المعرى، الـــشاعر العظـــيم والفيلـــسوف الأبيقورى.

وهناك ما هو أفضل؛ فلقد كنا شعبين يتصارعان صراعا رهيبـــا فـــى آسيا الصغرى؛ ولكن العرب المسلمين هم الذين صبغوا الشرق حتـــى جـــزر الهند الشرقية بالصبغة اليونانية. والعالم الإسلامى، عندما شن الحرب علـــى الإمبراطورية البيزنطية، نقل الثقافة اليونانية العربية إلى إســـبانيا المـــسلمة، ومن ثم تغلغلت أفكار فلاسفتكم ومذاهبهم حتى بلغت أعماق العـــالم الغربـــى عندما كان هذا العالم قد نسى الثقافة القديمة.

أما وحدة العالم، فلقد حاول الإسكندر صنعها؛ ولم يكد ينجح فى ذلـــك. وحاولت روما بدورها صنع ذلك، ولم يتح لها بدورها حظ أكبـــر مـــن حـــظ الإسكندر. وتمكن الإسلام من تحقيق الهدف لأنه عـــرب الثقافـــة اليونانيـــة واستطاع بذلك أن يضعها فى متناول كل الذين كانوا يفهمون العربية. وبداية من جزر الهند الشرقية حتى أوروبا كان هذا العالم بأسره يفكر وفقا لفلـــسفة أرسطو. وتلك هى الطريقة الفكرية التى منحها اليونانيون للعـــالم الإســـلامى خلال القرون العظمى للترجمة.

ولا يوجد فى العالم سوى بلدان قليلة جدا استطاعت الاحتفاظ بشخصية من المحال أن تمحى، بشخصية قادرة على الحيـــاة رغـــم كـــل الـــصعوبات والكوارث. وقدمت هذه البلدان للعالم مثالا للشعوب التى تستطيع تحمل الآلام والتقلبات والاحتفاظ فى نفس الوقت بشخصيتها كاملة. واليونان ومصر مـــن

هذه البلدان. فقد تعرضنا للغزو وعانتا من الطغيان، ولكـن لـم تمـس قـط شخصية أى منهما؛ ولم تتخليا قط عن الأمل ولا عن الثقة فى مصيريهما. وأنـا أعلم – ونعلم جميعا – أن بلدينا اضطرا فى لحظة ما إلى البقاء هـادئين. ففـى تاريخين متقاربين – فى منتصف القرن الخامس عشر بالنسبة لليونان وفى بدايـة القرن السادس عشر بالنسبة لمصر – خفت نوران ولكنهما لـم ينطفئـا. وبقـى هذان النوران العظيمان سراجين ساهرين خلال ثلاثة عقود وأكثر.

وفى القرن التاسع عشر أتى محمد على الكبير إلى مصر وأعاد للنـور المصرى المسلم كل قوته. وبفضل ذلك ولد من جديد العالم الإسلامى حتـى بلاد العرب فى القرن التاسع عشر، وتنتفض اليونان وتعطى لنورهـا القـوة التى هزت الإنسانية؛ وهـا هـي مـصر واليونـان تتعارفـان، وتلتقيـان، وتتصافحان. ولقد سلكنا نفس الطريق نحو تحقيق مصائرنا ففعلنا كل ما كـان فى وسعنا لكى نستعيد الزمن الضائع. ولقد صنعتم الأعاجيب، وأدهشتم العالم منذ سنة ١٨٢١ وتوصلت مصر إلى إفهام العالم أن من غير الممكن أن يوجد سلام حقيقى بدونها؛ وبإمكاننا نحن وأنتم، وبدون مبالغة وبدون غـرور، أن نتحدى العالم أن يحل السلام بدوننا، فالبحر المتوسط ينتمى لنا والسلام لـيس سوى وهم إذا لم يكن البحر المتوسط حرا وهادئا. ونحـن واعـون بقوتنـا وواعون من ثم بنقاط ضعفنا. ونحن لسنا أقوياء إذا لم نعرف مـاذا ينقـصنا لكى نصلحه. ونحن نريد أن يكون حاضرنا لائقا بالماضى وأن يكون مستقبل أبنائنا أفضل من حاضرنا. ولقد سرنا خلال القرن التاسـع عـشر والقـرن العشرين يدا فى يد. وقد رأيتم كيف أن المصريين عنـدما نزلـت الكارثـة باليونان اهتموا بكم، وشاركوا فى شقائكم وقلقكم.

وأرجو أن يكون اليونانيون قد رأوا وأحسوا أن المصريين اهتموا بهم وتألموا لألمهم واستمسكوا معهم برجائهم ألا تنطفئ الشعلة.

وعندما تعرضت اليونان للغزو، وعندما أرغم الجنود اليونانيون قوة كبرى على أن تدرك أن عليها أن تتفكر قبل أن تشن هجوما حتى على شعب أضعف منها، لم يمض مصرى لحظة واحدة، وأؤكد لكم ذلك، دون أن ينظر بإعجاب إلى إباء الشعب اليونانى الذى جدد عظمته الأولى. فالانتصار لا يتحقق بالوحشية وحدها، وهناك بالأحرى ما هو أفضل، هناك قوة الإيمان بالحرية والديمقراطية. وقد اتخذتم دائما من الحرية هدفا، الحرية لا لأنفسكم فقط ولكن للعالم أيضا.

وخلال القرون الوسطى تفاهم العرب واليونانيون دون وسطاء، عن طريق الترجمات والقراءات والزيارات. وما زال ذلك مستمرا اليوم، ولكن لا كما حدث فى الماضى. فأنتم أصبحتم تجهلون العربية، ونحن لا نعرف يونانيتكم الحديثة كما عرفنا فى الماضى اليونانية القديمة فى دمشق وبغداد والإسكندرية. وقد قصرنا نحن وأنتم تجاه أحدنا لآخر. وكان علينا أن نفعل شيئا لم نفعله. كان علينا أن نتوصل إلى التفاهم مباشرة ودون وسطاء. فلا يجب أن تلجأوا إلى الفرنسية أو إلى الانجليزية لكى تفهموا أدبنا المعاصر وأنشطتنا الثقافية. ولا يجب أن نفعل مثل ذلك لمعرفة أدبائكم مثل بالاماس، وكفافي، وإسكريانوس. ويجب أن نتوصل إلى قراءتكم فى النص الأصلى وأن تتوصلوا إلى قراءة مؤلفينا بلغتهم. فالتعارف عن طريق الوسطاء، ومن خلال لغة أجنبية، لا ينبغى أن يسمح به لأصدقاء مثلكم ومثلنا. وها أنتم تخاطبوننى بالفرنسية وها أنذا أتحدث إليكم بالفرنسية. وأنا أدرك أن اللغة

الفرنسية ليست لغة أجنبية بالنسبة للأشخاص المتحضرين، ولكنها مع ذلك ليست العربية، وليست اليونانية. وكم كنت أود أن أفهمكم عندما تتكلمون اليونانية وأن أوجه إليكم الخطاب بالعربية، ولذلك كلفتنى الحكومة المصرية، مستلهمة محب اليونان الكبير صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، بأن أعلن لكم أنها قررت أن تنشئ فى جامعة أثينا كرسى الملك فاروق للغة والأدب العربيين.

وبداية من السنة الجامعية القادمة سيكون لديكم إذا شئتم أستاذ مصرى سيعلم شبابكم لغتنا وأدبنا العربيين. وأنا أنتظر إنشاء كرسى اللغة والأدب اليونانيين الحديثين فى جامعة الإسكندرية لدينا، وأرجو أيضا أن يأتى جيل لا تكون به حاجة إلى لغة أجنبية للكلام بين اليونانيين والمصريين.

أيها السادة، أنا أنظر إلى إقامتى فى أثينا وفى اليونان وإلى هذا الحفل البالغ التأثير الذى تكرمتم بتخصيصه لى بوصفه مكافأة على كل ما فعلت خلال حياتى وبوصفه تشجيعا على فعل كل فى وسعى فى الوقت المتبقى لى من حياتى. وليس لدى ما أفعله لكى أشكركم أفضل من الاعتراف بهذا الدين.

ملخص الخطاب الذى ألقاه صاحب السعادة وزير المعارف العمومية بمملكة مصر بمناسبة افتتاح معهد فاروق الأول بمدريد

باسم الحكومة المصرية أنقل اليوم تحية مصر لإسبانيا وأشكرها على المجاملة والتفهم اللذين أبدتهما نحونا، واللذين أمكن لنا بفضلهما إنشاء معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية فى مدريد.

وأتدخل الآن على مستوى شخصى لأقول كم كان هذا الإنشاء عزيزا على نفسي. فهذا فى الواقع مشروع، حلم داعب خيالى منذ عامين على وجه الدقة، أى منذ زيارتى الأولى إلى إسبانيا. كان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٨. وكان يكفينى حينذاك أن أرى الإسكوريال ومكتبته الرائعة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة - هذه الجواهر الأندلسية التى تثير أسماؤها المشاعر أى إثارة عندما تسمعها أذن عربية - لكى أقتنع بضرورة إنشاء معهد مصرى فى إسبانيا يتيح للباحثين الشباب من بلادى أن يقتربوا من كنوز الحضارة العربية الإسبانية وأن يروها حية إذا صح التعبير. فالواقع أن الشرقيين، والمصريين بصفة خاصة، لم يعرفوا حتى اليوم هذه الحضارة اللافتة للنظر إلا عن طريق الكتب. وسيتاح لهم بفضل إنشاء معهدنا هذا أن يخبروها على نحو مباشر. واليوم أصبح هذا الحلم حقيقة واقعة بفضل صاحب الجلالة الملك فاروق الأول الذى تكرم منذ سنتين بالاهتمام بهذا المشروع وأولاه دائما منذ ذلك الحين عطفه السامى.

وأنا لا أومن بحتمية التاريخ. بل أعتقد على عكس ذلك أن الإنسان سيد حياته ومسيطر على مصيره إلى حد ما. ولكن هناك حتمية لا يستطيع أحد إنكارها: هى الحتمية التى تعنى أن الإنسان لا يستطيع نقض التاريخ ما إن يصنع. وقد شاء التاريخ أن تنشئ الإسبانية والعربية معا خلال عدة عقود حضارة جديرة بالإعجاب. ولا شك أن الانسجام بينهما لم يكن دائما هو القاعدة؛ ولا شك أن مشاعر الأخوة لم توجه دائما هذا العمل المشترك. ولكن هذا العمل أتى بثمار مفيدة أعظم الفائدة للإنسانية، وبفضل ذلك افتتحت آفاق جديدة فى مجال الأدب، لا فى إسبانيا وحدها، بل فى فرنسا خلال العصور الوسطى على سبيل المثال. وبفضل ذلك أيضا تقدمت الفلسفة بخطى كبيرة، ونقل تراث اليونان القديمة إلى أوروبا، وإلى الغرب بأسره فى العصر الوسيط، وذلك قبل عصر النهضة بمعناها الدقيق.

أجل، كان لدى العرب كما كان لدى الإسبان كثير من الانتصارات والهزائم؛ وقد يمكن أن يقال إنهما سويا رويا بدمائهما هذه الحضارة التى تحدثت عنها لتوى؛ وهى لذلك عزيزة عليكم كما هى عزيزة علينا.

ولكن المعهد الذى أتشرف بافتتاحه اليوم له مغزى وهدف. فما صنعه أجدادنا مستعينين بالعنف، نعتزم نحن إحياءه من الآن فصاعدا مستعينين بعذوبة التعاون العلمى والصداقة الثقافية. وقد اقترحت مصر إنشاء هذا المعهد؛ ووافقت إسبانيا بغاية اللطف. وأرى فى ذلك علامة مؤكدة على أن تقدم الإنسانية ليس بالكلمة الجوفاء. فعلاقاتنا اليوم تقوم على المستوى الثقافى؛ فى حين أنها اتسمت فى الماضى بطابع حربى.

أما فيما يتعلق بالأهداف التى يقترحها هذا المعهد الذى يسعدنى أيما سعادة أن أفتتحه اليوم باسم صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الأول، فهو تنشئة وهو تدريب شبان مصريين من أجل البحث العلمى. فسيحرص هؤلاء الرجال الآتون من بلادى على تعريف الشرق لا بإسبانيا المسلمة وحدها، بل بإسبانيا الحية بأسرها أيضا، بما لها من ثروات أدبية وفنية. ولن تقتصر مهمتهم على ذلك؛ بل يتعين عليهم أيضا تعريف إسبانيا والإسبانيين بمصر فى الماضى وبمصر فى الوقت الحاضر. وبذلك يسهمون فى توثيق روابط الصداقة بين شعبينا، وهى الصداقة التى بدونها لا يمكن أداء عمل نافع.

ولا تقتصر مهام معهد فاروق الأول على ذلك. فقد أنشأت جامعة فؤاد الأول مؤخرا كرسيا للأدب الأندلسى؛ وستحذو حذوها قريبا جامعة فاروق الأول فى الاسكندرية. ومن الضرورى تماما إذن تدريب أخصائيين من أجل الوفاء باحتياجات هذين الكرسيين؛ وسيتلقون تدريبهم فى مدريد.

يضاف إلى ذلك أن مصر لن تكتفى بإرسال عدد من أبنائها للعمل هنا؛ فستستعين - بل لقد بدأت تستعين فعلا - بالعلماء الإسبان الذين سيأتون إلينا بأنوار من سبقنا من كبار المستشرقين فى دراسة تاريخ إسبانيا المسلمة وأدبها وفنونها.

وزميلى المرموق وصديقى الأستاذ إميليو جارثيا جوميز الذى لعب دورا عظيما لا يعترف به تواضعه فى إنشاء هذا المعهد (فليس بإمكانى أن أنسى أننى جئت بناء على دعوته إلى إسبانيا منذ سنتين) سيأخذ الكلمة بداية من هذه السنة الأكاديمية فى جامعتينا بالقاهرة والإسكندرية. وأرجو أن يتبعه آخرون.

ونظرا لأننى لست متواضعا فى طموحى من أجل المعهد الذى نفتتحه اليوم، فإنى أرجو أن أتمكن من تزويده بمطبعة عربية حتى نستطيع نحن وأنتم نشر عدد من المخطوطات التى توجد إما فى هذا البلد أو فى بلدان أخرى إذا كانت تعنى إسبانيا العربية.

وغنى عن الذكر أخيرا أن شبابنا سيتعلمون لغتكم الجميلة، لا لأنها أداة عمل رائعة فحسب، بل لكى يتمكنوا ذات يوم من ترجمة روائع أدبكم إلى العربية أيضا. وأرجو فى مقابل ذلك أن تقدم فى هذا المعهد دروس فى العربية للشباب الجامعى الإسبانى الذين يريدون دراسة الاستشراق ثم زيارة مصر لدراسة العربية فيها؛ وفى هذا الصدد أشكر إسبانيا التى تمنح منذ فترة منحا دراسية للشباب المصرى. وأرجو أن تفعل مصر نفس الشيء.

وأعتقد فى الختام أن شعبينا سيدركان، عن طريق هذا التبادل للأساتذة وهذا التبادل للطلاب، وهذا التبادل للمصنفات العلمية، وعن طريق التعاون الخالى من الغرض فى البحوث والدراسة والنشر، أنهما ينجزان واجبهما نحو الحضارة من أجل التقدم الأخلاقى للإنسانية.

تقرير السيد طه حسين
عن ترجمة الروائع العالمية للعالم العربى

لما كانت اليونسكو تدرك أهمية الترجمة بوصفها وسيلة لتحقيق وحدة العقل الإنساني أينما تجلى في العالم، فقد قبلت من المجلس الاقتصادى والاجتماعى في يونيو ١٩٤٧ الدعوة المقدمة بناء على مبادرة السيد شارل مالك إلى النظر فى خطة عملية لترجمة أعمال كلاسيكية عالمية إلى جميع اللغات.

ولهذا الغرض كونت اليونسكو في مايو ١٩٤٨ لجنة خبراء خلصت بعد دراسة هذا الاقتراح إلى أن مثل ذلك المشروع مناسب وضروري: أى أن تترجم إلى جميع اللغات بقدر الإمكان الأعمال الكبرى سواء أكانت أدبية أم علمية أيا ما كانت اللغة التى كتبت بها. ومن المؤكد أن أعضاء اللجنة لم تغب عنهم جسامة مهمة من هذا القبيل. ولكن الأمر الأساسى بالنسبة لهم كان هو أداؤها. وبدا للجنة أيضا أن من غير الممكن وضع خطة جامعة، ورأت من ثم أن من المفيد أن يعهد بإعدادها وتحقيقها إلى مراكز إقليمية فى وضع أنسب يمكنها من تحديد الاحتياجات والموارد والإمكانيات. وفكرت اللجنة بنفس المناسبة فى توصيات أخرى تتعلق بتفاصيل ترد نصوصها فى المحاضر الحرفية للجلسات.

وبعد ذلك ببضعة أشهر، أى فى نوفمبر – ديسمبر ١٩٤٨، حاولت اليونسكو أن تنشئ في بيروت أول مركز إقليمي للترجمة فى العالم العربى. وسهلت الحكومة اللبنانية المهمة فأخذت زمام المبادرة فيها والتزمت بدفع معونة سنوية قيمتها ١٥ ٠٠٠ دولار. ووعدت اليونسكو باتخاذ إجراء مماثل وتفاهم الطرفان بناء على ذلك على إنشاء مركز مستقل ذى شخصية معنوية لكى يتولى "ترجمة ونشر وتوزيع" أعمال كلاسيكية أجنبية.

والمركز الذى يتخذ مقره فى بيروت يتألف فى الوقت الحاضر من ثلاثة أعضاء لبنانيين اختارتهم حكومة بيروت وثلاثة أعضاء آخرين فرنسى وانجليزى وأمريكى يمثلون اليونسكو. ومن المقرر أن تكون هناك مقاعد للبلدان العربية الأخرى بحيث يخصص لكل دولة مقعدان. إلا أن أيا من دول الشرق الأدنى لم ترسل حتى الآن ممثلين إلى هذا المركز، وهو ما يعنى فى الواقع أن هذا المركز ما زال قاصرا على اليونسكو ولبنان. ولكن هذا الوضع يستدعى بطبيعة الحال إبداء بعض الملاحظات.

فمن المؤسف أولا أن إنشاء هذا المركز لم يقترح على جميع حكومات الشرق الأدنى فى نفس الوقت، وهو ما كان سيسمح بإعداد اتفاقية يدرسها ويوافق عليها فى نفس الوقت اليونسكو والممثلون المؤهلون لحكومات الشرق الأدنى. فمن المستبعد بالنسبة لعضو جاء إلى المركز بعد تأسيسه أن يكون عضوا مؤسسا. وقد نأسف أيضا لأنه لم ينص على تخصيص نفس العدد من المقاعد لدول الشرق الأدنى الأربع – أى مصر ولبنان وسوريا والعراق – التى تبدى اهتماما واضحا تماما بالثقافة عن طريق الترجمة. والواقع أن المادة ٤ من النظام التأسيسى تكرس نوعا من اللامساواة بين الدول. فلما كان

أعضاء المركز الإقليمي يجب ألا يتجاوز عددهم اثنى عشر، فإن مصر وسوريا والعراق لن يكون لكل منها إلا مقعدان في حين أن اليونسكو ولبنان يحتل كل منهما ثلاثة مقاعد. يضاف إلى ذلك أن هناك جوا من اللامساواة يشيع في النظام التأسيسي، في المادتين ١٢ و١٤ بصفة خاصة، حيث تحظى اليونسكو ولبنان بمعاملة محابية. ويبدو لي أنه لا مناص من تعديل كل ذلك، والاتصال على وجه السرعة بحكومات الشرق الأدنى للحصول على انضمامها، وتشكيل لجنة على قدم المساواة حتى لو اقتضى الأمر جعل عدد المقاعد خمسة عشر بدلا من اثنى عشر، فمن المستحسن في مشروعات بهذه الضخامة أن نتلافى بقدر الإمكان كل ما من شأنه المساس من قريب أو بعيد بما يحق لكل دولة من اعتزاز بذاتها.

ويبدو لي إذن أن من الخطأ أن ننظر إلى هذا المشروع الرامي إلى الترجمة إلى العربية أو منها كما لو كنا نريد أن ننشئ شيئا من العدم أو كما لو أن شيئا على الإطلاق لم يتحقق بعد في هذا المجال. فالواقع أن هناك تراثين متوازيين تحسن مراعاتهما من أجل تحقيق مثل ذلك المشروع. فهناك أولا تراث من الترجمة في الشرق. وذلك أن العالم العربي أخذ منذ زمن طويل ينظر إلى الترجمة بوصفها وسيلة أساسية للثقافة. وليس هناك من يجهل ما فعله العرب القدماء وإلى أي حد أفادوا من الترجمات؛ وبحيث يمكن أن يقال إن الحضارة الإسلامية صارت إلى ما صارت إليه بفضل هذه الترجمات. وغني عن القول إن العرب كانوا ورثة التراث اليوناني القديم بفضل أعمال الترجمة التي بدأت في القرن الأول للهجرة وتواصلت حتى منتصف القرن الرابع، وإنهم استطاعوا تعريف الغرب بما هو مهم فيه.

والواقع أن العرب ظلوا خلال ثلاثة قرون يأخذون عن الأمم التـي سـبقتهم إلى الحضارة كل ما ينبغى أخذه حتى لا تكون دولتهم الناشئة أقل شـأنا مـن الإمبراطوريات التى سيطرت من قبل علـى العـالم. فقـد تـرجم الطـب والرياضيات وحكمة الهنود، والسياسة والإدارة الفارسيتان، وكل الفلسفة وكل العلوم اليونانية؛ وكان ذلك فى كثير من الأحيان بفضل مبادرة الدولة وبفضل المبادرة الخاصة فى بعض الأحيان.

وبدا العالم الإسلامى حينذاك مقسما إلى ثلاثة معسكرات تمامـا كمـا يرى اليوم فى الشرق الأدنى. فقد كان هناك أنصار الثقافة الـشرقية الهنديـة الإيرانية، وأنصار الثقافة الهلنستية، والمحافظون الذين كانوا قانعين بـالعلوم التقليدية المعنية بالدين واللغة العربية. فكيف لا ننظر على نحو مماثل إلى ما نراه فى أيامنا هذه فى الشرق الأدنى؟ أفـلا نعـرف حقـا أنـصار الثقافـة الأنجلوسكسونية، وأنصار الثقافة الفرنسية، وأخيرا المحافظين الذين ما زالوا فى الظاهر على الأقل يريدون الاقتصار على التراث الإسلامى مع الإفادة فى نفس الوقت من المزايا المادية للحضارة الغربية؟ وإذا كان العرب لم يقطعـوا شوطا طويلا فى ترجمة الأعمال الهندية والصينية، فقد كان لذلك سببان همـا الملائمة من الناحية الدينية وقلة المعرفة بهاتين اللغتين. ولكن ذلك لـم يحـل بينهم وبين معرفة هذين البلدين بقدر الإمكان، وذلك بفضل تقـارير الرحالـة والتجار، ويشهد على ذلك الكتاب الجميل المجهول المؤلف الذى نشر الـسيد سوفاجيه مؤخرا نصه العربى وترجمته الفرنسية فى مجموعـة ج. بوديـه. ويرجع الكتاب المذكور إلى القرن الثالث للهجرة. ومن المؤكد بالإضافة إلـى ذلك أن العرب حرصوا على أن يعرفوا – واستطاعوا بالفعل أن يعرفـوا –

كل ما عرفه فى الواقع مسيحيو الإمبراطورية البيزنطية وعالم الشرق الأدنى من الهلنستية. فأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وشراحهم والأعمال المنحولة المنسوبة إلى الفلاسفة الثلاثة؛ وجالينوس وبطليموس وإقليدس وشراحهم – كل هؤلاء ترجموا وشرحوا واستخدموا فى أغراض كلامية وفى أغراض فلسفية خالصة. وإذا كان العرب لم يترجموا الشعر اليونانى سواء أكان ملحميا أم غنائيا أم دراميا، فذلك لأن هذا النوع من الإنتاج الأدبى لم يكن ذا حظوة فى العالم المسيحى فى تلك الفترة ولم يكن يتفق مع الوحدانية الإسلامية كما لم يتفق مع الوحدانية المسيحية.

وقد أصيب هذا النشاط الشديد فى مجال الترجمة بالشلل لفترة بسبب طغيان العنصر التركى فى الإمبراطورية الإسلامية، ثم استؤنف فى بداية القرن التاسع عشر من التاريخ المسيحى عندما اتصلت مصر بأوروبا بفضل الحملة الفرنسية وعندما أعادت بلدان الشرق، ولبنان بصفة خاصة، الاتصال بالمأثورات الأوروبية بفضل المبشرين اليسوعيين والبروتستانت. ولكن رغم أن المترجمين طيلة القرن التاسع عشر لم يتقاعسوا عن تغذية الفكر العربى، فإن عملهم كان معيبا فى الأساس. فقد وجهوا جهودهم وجهة عملية ونفعية وهم الذين طغى عليهم الاهتمام بما هو عاجل. واستمرت متطلبات الحياة اليومية فى احتلال المرتبة الأولى من الأهمية كما حدث فى الماضى فى بغداد. ومن ثم كان هناك اهتمام مفرط بالمجال العلمى على حساب الأعمال الأدبية. بل ومن الممكن بالإضافة إلى ذلك أن نقول إن الأدلة والكتب المدرسية كانت لها الغلبة على الأعمال الكبرى فى نطاق هذا المجال العلمى.

أما التراث الآخر الذى أشرت إليه، فهو تراث المستشرقين. ولن أتوقف عند ترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية فى العصر الوسيط فى إسبانيا وغيرها من الأماكن. بل سأخص بالذكر الجهد الذى بذله المستشرقون بداية من عصر النهضة. فقد تعمقوا فى الأدب والفلسفة والعلوم الإسلامية، وأدوا بذلك الدور الذى حيل بين المسلمين أنفسهم وبين أدائه بسبب تقلبات تاريخهم. ويترتب على ذلك أن العالم العربى المعاصر لن يتمكن أبدا من أداء الدين الذى أصبح يدين به للمستشرقين الأوروبيين والأمريكيين. فاهتمامات هؤلاء تمتد لتشمل تقريبا كل فروع الثقافة الإسلامية التى درسوها وطوروها، كما تمتد إلى الأعمال الأساسية التى ترجموها أو نشروها وشرحوها، وسهلوا بذلك نقلها إلى أى لغة أجنبية.

ولكن المستشرقين علماء قبل كل شيء؛ فقد اهتموا حتى الآن بالقدماء، وهم من ناحية أخرى يعملون من أجل العلم الخالص ويخاطبون الأخصائيين. وهم لا يفكرون على الإطلاق فى عامة الجمهور، وليس من الممكن أن نطالبهم بذلك. بل وأستطيع أن أقول إنهم لا يفكرون فى العلماء من غير المستشرقين؛ وهو ما يعنى أن ثمة صومعة منيعة تعزل أعمالهم عن التخصصات العلمية والثقافة المعاصرة رغم الجهود التى يبذلونها والنتائج الرائعة التى يتوصلون إليها. ومن شأن الفيلسوف غير المستشرق أن يصطدم نتيجة لذلك بصعوبات جسيمة إذا حاول أن يتحقق بطريقة مقنعة من التقدم الذى ساعد المسلمون الفلسفة اليونانية على تحقيقه. وشبيه بذلك أن مؤرخ الأفكار والعلوم بل والفنون التطبيقية سيعوقه دائما تبحر المستشرقين وخوضهم فى دقائق المعرفة.

وينبغى إذن الوصول إلى مايلى: ١) أن يتاح لعامة الجمهور ما يمكنهم إدراكه من الثقافة الإسلامية القديمة والمعاصرة؛ ٢) أن يمكن أخصائيو الثقافة الأوروبية من معرفة ما قد يكون نافعا لهم من الفكر الإسلامى.

ويجد مؤرخ الفلسفة أن مما لا غنى عنه أن تتوافر لديه ثقافة يونانية لاتينية، وأن يتاح له التعرف على هذه الثقافة إما عن طريق معرفة اليونانية واللاتينية التى تسمح له بالرجوع إلى المصادر، أو عن طريق أخصائيى الآداب الإغريقية واللاتينية الذين يعرفونه بالثقافة المذكورة. ومن المؤسف ألا يتاح له مثل ذلك فى حالة الأعمال المؤلفة بالعربية أو الفارسية أو فى أى لغة شرقية. ومن الطبيعى إذن وضع تلك المؤلفات فى متناوله دون أن يتطلب منه ذلك أن يكون على علم بالعربية أو الفارسية أو الهندية.

ولا يفوتنا عند النظر فى هذين التراثين وما يقتضيه فهم هذين العالمين أحدهما عن طريق الآخر أن نلاحظ أن الكثير قد أنجز فى مجال الترجمة إلى العربية وعنها، ولكن ما زال هناك كثير مما ينبغى عمله، واليونسكو هى التى ينبغى لها تحقيقه. فمن شأن اليونسكو - إذ تنأى بنفسها عن خطرى النزعة النفعية والأوهام اللذين يبدو أن الحكومات والمبادرات الفردية تتعرض لهما - أن تجعل من الترجمة عملا منهجيا.

ومن شأنها إذا أرادت إثراء اللغات المختلفة أن تتجه إلى الأعمال الرئيسية التى تقوم من الفكر مقام الأساس ذاته. وهى بالتوازى مع ذلك ستحرص وفقا للمنهج الذى تتطلبه من المتعاونين معها على أن تترجم الأعمال موضوع الترجمة بطريقة تخلو من الغرض. ويجب أن تكون الفكرتان اللتان تدعمان وترشدان هذا المشروع الضخم هما إثراء اللغات من

ناحية، وإطلاع الشعوب من ناحية أخرى على حقيقة الأفكار التى يجهلونها أو لا يعرفونها بما فيه الكفاية. ومن غير الجائز فى المرحلة الحالية من الفكر العالمى ألا يكون شكسبير بأكمله وديكارت بأكمله وجوته بأكمله على سبيل المثال لا الحصر فى متناول شعوب الشرق باللغة العربية. وبفضل هذا الجهد المبذول فى الترجمة، ستصبح هذه اللغة الأخيرة، من أجل مستقبل الثقافة ذاته، لغة للنزعة الإنسانية فى العصر الحديث كما كانت فى العصر الوسيط تسمح بالتقارب بين العقول على نطاق واسع. ولكن التبادل قيم بدوره، فقد آن الأوان لكى يترجم مؤلفون مثل الجاحظ وابن سينا وابن خلدون من العربية إلى اللغات الأوروبية وأن تصبح أعمالهم بأكملها معروفة مثلها مثل أعمال كبار المفكرين الكلاسيكيين فى العصور القديمة والعصر الحديث. وقد أصبح من الواجب إذن أداء المهمة الرامية إلى إعادة تلك العقول العظمى إلى مكانها اللائق. وقد تعمدت الحديث عن ""الأعمال بأكملها" عند ذكر بعض الأسماء، لأنه يتعين تماما تلافى الترجمات الجزئية التى تتيح مجالا لبقاء الأوهام التى سادت حتى الآن.

ومن العبث إنكار مدى جدية كل ذلك وأهمية الخدمة الكبيرة التى تستطيع اليونسكو تقديمها للفكر العالمي. ويبدو لى مع الاقتصار على الشرق الأدنى أن اليونسكو ستستطيع عن حق أن تفخر ذات يوم - إذا هى مضت فى هذه المشروعات إلى نهايتها- بأنها أعطت اللغة العربية كل موليير وكل شكسبير، وأعطت مختلف بلدان الغرب كل أعمال شاعر أو ناثر عربى. يضاف إلى ذلك أن بوسع اليونسكو أن تكون على اقتناع بأن جهدها لن يضيع؛ فهى بالعكس ستلقى فى الشرق الأدنى صدى قويا، وذلك لأنه يوجد

فى الشرق بأسره حب استطلاع وشوق إلى المعرفة يجلان عن كـل تعبيـر. ومن الواضح أن العالم العربى الحالى يمتاز على العالم العربى القديم بالميزة الكبرى التى هى معرفة اللغات الأوروبية. فالنخبة التى تتكلم لغة أو أكثر من هذه اللغات تقرأ بسهولة أعمال كبار الأساتذة فى نصها الأصلى، وتتعـرض لتأثيرها وتنشره فى أوساط أخرى. ولكن الذين يفهمـون اللغـات الأجنبيـة يعدون وسيعدون دائما أقلية. ومما لا غنى عنه إذن أن يتاح لعامة الجمهـور بدورهم وبلغتهم كل ما يتألف منه تراث الحضارة الإنـسانية. وأذكـر بهـذه المناسبة أننى ألقيت منذ حوالى خمسة عشر عاما سلسلة من المحاضرات عن فولتير وروسو ورينان وتين، وأن آلاف المستمعين تابعوا هذه المحاضـرات بانتباه واهتمام واضحين، بل ان معظم المستمعين جاءوا من بين الأزهريـة، وهم طلاب الجامعة الدينية الذين يجهلون اللغات الأجنبيـة، ولكـنهم كـانوا يرغبون فى معرفة تفكير مؤلفين مثل من تناولتهم بشأن مـشكلة أو أخـرى. ولم يكن أى من هؤلاء الكتاب مترجما حينئذ بالعربية، وهم ما زالـوا غيـر مترجمين. وليكن هذا المثال من بين آلاف الأمثلة الأخـرى كافيـا لإبـراز الحاجة العميقة التى ستلبيها جهود اليونسكو والتى تسمح لنا بتوقـع النجـاح الذى سيحرزه مشروعها.

ومراعاة للجانب العملى، وللمساعدة على تحقيق خطة ضـخمة مـن هذا القبيل ومهمة فكرية وإنسانية أستدعيها بكل أمنياتى، فإنى أقترح:

١) إنشاء مركز إقليمـى يتخـذ مقـره فـى بيـروت ولكنـه يتـضمن مساواة كاملة بين الأعضاء. وسيتلقى المركـز إعانـة ماليـة مـن جميع الدول المشاركة فيه ومن اليونسكو.

٢) تشكيل لجنة فرعية وطنية فى كل بلد تتألف من أشخاص أكفاء بالنسبة لكل ما يتعلق بترجمة الأعمال الكلاسيكية ونشرها وتوزيعها.

٣) ستقتصر مهمة المركز بالفعل على إقرار الخطط الموضوعة فى كل لجنة فرعية، وتنسيق الأعمال ووضعها موضع التنفيذ.

٤) يجب بالنظر إلى أهمية خطة الترجمة أن تعرض عند إقرار المركز الإقليمى لها على لجنة لخبراء اليونسكو.

وقد رأت لجنة اليونسكو التى اجتمعت فى ما يو ١٩٤٨ إنشاء لجنة مركزية للخبراء تتخذ مقرها فى باريس وتتولى تقديم المشورة لليونسكو بشأن كل ما يهم الترجمة. ويبدو لى أنها ستكفل التوازن بين أعمال المراكز المختلفة والتوازن بين الأفكار والاتجاهات داخل كل مركز.

٥) غنى عن الذكر أن ترجمة كل عمل ستعرض قبل الطباعة على خبراء يكونون هم المرجع فى اللغتين، لغة الأصل ولغة الترجمة.

وينبغى – كمهمة مزدوجة أولية سأقترحها على الهيئات المكونة على نحو ما تقدم، ولكى نتلافى بقدر الإمكان الأخطاء التى لم يستطع مركز بيروت أن يتحاشاها (مثل الرغبة فى ترجمة الجزء السيكولوجى فقط من كتاب أفكار باسكال مما يعرضه لخطر التشويه؛ أو التفكير فى ترجمة أعمال يوجد لدينا بالفعل منها نص عربى مثل الجزء الأول من فاوست و[مسرحية] يوليوس قيصر) – أن:

١- توضع القائمة الكاملة لكل ما أنجز فى مختلف البلدان فى مجال الترجمة، وفى إطار خطة العمل المنصوص عليها، وذلك بغية عدم التعرض لإعادة ترجمة أعمال سبق أن ترجمت، هذا إلا إذا كان ينبغى تحسين هذه الترجمات.

ولا مانع من أن توضع فى نفس الوقت - بالإضافة إلى هذه البيليوغرافيا المحدودة - القائمة النهائية لجميع ما ترجم، وذلك بغية وضع مجموعة بطاقات عامة تكون مصدرا ثمينا للتوثيق بالنسبة للباحثين ومرحلة أولية تسهل بعد ذلك تحقيق خطط عمل جديدة،

٢- توضع خطة عمل لفترة محددة وأن يقسم هذا العمل بين البلدان واللجان الفرعية. ومثال ذلك أن تتولى مصر أمر جوته، وتتولى لبنان أمر ديكارت أو موليير أو ما إلى ذلك...

ولا مانع من مراعاة عامة الجمهور، بل إن ذلك أمر مستحب تماما، وأن يتقرر - بالإضافة إلى الخطة الخاصة بترجمة الأعمال الكبرى - وجود خطة أخرى لترجمة أعمال المحدثين الذين يمكنهم التأثير على القارئ المتوسط مباشرة وبسهولة. وبذلك تكون هناك وسيلة فعالة للثقافة بالنسبة للجمهور وللتقارب بين العقول. بل ان من شأن البيع المؤكد لهذه الأعمال على نطاق واسع أن يسمح لليونسكو بترجمة أعمال توجه بصفة خاصة إلى النخبة وقد لا تتمكن من تصريفها بسهولة.

وقد تعدل هذه المسائل المتعلقة بالتفاصيل للنزول أثناء سير العمل على حكم الضرورات التى يظهرها تحقيق مثل هذا المشروع. والمهـم هنـا هـو بلوغ هذا الهدف الإنسانى الذى تعتزم اليونسكو السعى إليه، وأن يصبح مـن الممكن ذات يوم تعديل شعر كبلنج على نحو واضح فيقال إن "الشرق شـرق والغرب غرب، ولكنهما يلتقيان ولن يفترقا أبدا".

الملحق الأول

إن العرب كما قيل أعلاه اهتموا بصفة خاصة بترجمة الفلسفة والعلوم اليونانية لأن ذلك كان يتجاوب مع احتياجاتهم الكلامية من ناحية والتقنية من ناحية أخرى.

وأهمل الأدب اليونانى كله بشعره ونثره بل وكان الجهل به شديدا فى كثير من الأحيان؛ ولقى الأدب اللاتينى نفس المصير.

وفى هذا المجال ما زالت الحاجة تدعو إلى عمل كل شيء. ويجب أن يراعى أن ثمة مدرسة مصرية شابة لأخصائيي الآداب اليونانية واللاتينية أخذت ترى النور نظرا لأن اليونانية واللاتينية تدرسان فى جامعتى القاهرة والاسكندرية منذ بضع سنوات، ويتدرب البعض على ترجمة بعض روائع الأدب اليونانى إلى العربية مثل سوفوكليس ويوربيديس، ولكن هذه رغاب لم تتحقق بعد.

وكانت الترجمات القديمة للمصنفات الفلسفية أو العلمية اليونانية تتم نقلا عن ترجمات سريانية فى كثير من الأحيان، ونقلا عن الأصل اليونانى فى بعض الأحيان. ولكن اللغة التى صيغت بها هذه الترجمات ركيكة بصفة عامة وتفتقر إلى الكثير من حيث دقتها. والجزء الأكبر من هذه الترجمات فقد أو ما زال مجهولا. وبعضها يمكن الاطلاع عليه إما فى المكتبات أو فى بعض الطبعات التى أصدرها المستشرقون. ومن ذلك ترجمة "الأورجانون"

[لأرسطو] التى ترجع إلى القرن الثالث للهجرة ويتــولى نــشرها فيلــسوف مصرى شاب هو عبد الرحمن بدوى من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة.

وليس ثمة ضرورة عاجلة للاهتمــام فــى الوقــت الحاضــر بهــذه الترجمات، وذلك من ناحية لأن الشرقيين الذين يدرسون الفلسفة اليونانيــة أو الإسلامية يستطيعون الاطلاع على الأعمال الأصلية إما فى نصها الأصــلى أو فى ترجماتها الجيدة باللغات الأوروبية؛ ولأن جميع الترجمات من ناحيــة أخرى حللت وشرحت على يدى الفلاسفة المسلمين الثلاث الكبار: الفــارابى وابن سينا وابن رشد. وأعمالهم إمــا نــشرت أو بــسبيلها إلــى أن تنــشر. والحكومة المصرية بصدد إصدار طبعة ممتازة من العمــل الرئيــسى لابــن سينا، وهو "كتاب الشفاء" الذى يحلل ويشرح كل فلسفة أرسطو بالاستناد إلــى ترجمات تلك الفترة.

وينبغى أن يلاحظ أن العصر الحديث يشهد عودة التقاليد القديمة إلــى الظهور، فأصبحت الفلسفة اليونانية تتــرجم نقــلا عــن ترجمــات فرنــسية وانجليزية.

فقد ترجم المدير الأسبق لجامعة القاهرة أحمد لطفــى الــسيد باشــا "الأخلاق إلى نيقوماخوس" و"السياسة" و"الطبيعة" لأرسطو.

وترجم لبنانى هو السيد [حنا] خباز "جمهورية" أفلاطون.

ولا شك أن هذه الترجمات غير المباشرة ستنتهى إلى ما انتهت إليــه الترجمات القديمة عن السريانية عندما تــصبح الترجمــة المباشــرة ممكنــة بالاستناد إلى النص الأصلى. ولكن يبدو أن من الممكن فى الوقت الحاضــر الاهتمام بصفة خاصة بترجمة الأعمال الأدبية اليونانية واللاتينية.

الملحق الثانى

العالم العربى فى الوقت الحاضـــر لا يعــرف إلا القليـــل جــدا عــن الحضارتين الهندية والصينية.

وذلك أولا لأن العرب القدماء كما قيل أعلاه لم يعنوا برعايـــة لغتـــى هذين البلدين ولم يعرفاهما إلا على نحو غير مباشر؛ وثانيا لأن العالم العربى المعاصر أكثر اتصالا من الناحية الثقافية بصفة خاصة بـــالغرب الأوروبـــى والأمريكى منه بالشرق الآسيوى. ويترتب على ذلك أن ما ينبغى عمله فـــى هذا المجال يشمل كل شيء. ولئن كان من الممكن أن يتولى الهنود المجيدون للعربية والقادرون على القيام بترجمات جيدة تعريف العالم العربـــى بـــشؤون الهند، فإن ذلك لا يصدق على شؤون الصين؛ وقـــد ينبغـــى هنـــا الانتظـــار بعض الوقت.

وعلى نقيض ذلك بدأت بفضل جامعتى القاهرة والاسكندرية الترجمـــة من الإيرانية والتركية على نحو فعال. فقد بعثت ترجمة قديمـــة للـــشاهنامه. وترجم حافظ [الشيرازى]. وهناك مـــن يعنـــى بـــسعدى وكبـــار المتـــصوفة الإيرانيين والأتراك.

الملحق الثالث

يوجد فى الشرق الأدنى، وبخاصة فى مصر ولبنان، ميل واضح ومتزايد إلى الترجمة.

ففى القرن الماضى ترجم عن الفرنسية والانجليزية. وبدأت منذ فترة الترجمة عن الألمانية والإيطالية.

ومن المؤكد أنه ليس هناك نقص فى المترجمين الجيدين عن هذه اللغات الأربع. كما يوجد فى لبنان وسوريا مترجمون من هذا القبيل عن الفرنسية والانجليزية. ومن الممكن العثور على هؤلاء المترجمين بالنسبة للإسبانية بفضل المستعمرات اللبنانية والسورية الكبرى فى أمريكا اللاتينية. ويصعب فى الوقت الحاضر وسيبقى صعبا لفترة ما العثور على مثل هؤلاء المترجمين بالنسبة للروسية واللغات الاسكندنافية. إلا أن هناك من يترجم دوستويفسكى وتولستوى وإبسن، وإن كان ذلك نقلا عن الانجليزية والفرنسية.

وتوجد فى مصر منظمات حكومية أو خاصة للترجمة؛ ولكنها تعنى بالأحرى بالكتب المدرسية، وكتب التبسيط والروايات التى تهم عامة الجمهور. وهى لا تترجم "الكلاسيكيات" إلا بقدر احتياجات التعليم الثانوى.

وهكذا ترجمت مسرحيات لشكسبير: "هاملت" و"يوليوس قيصر" و"مكبث" و"الملك لير"، ومسرحيات لكورنى: "السبد"؛ ومسرحيات لموليير: "البخيل" و"طرطوف" (باللغة العامية). ولكن يبقى كل ذلك بعيدا غاية البعد عن الأهداف التى تسعى إليها اليونسكو.

الملحق الرابع

ترجم المستشرقون قدرا من النصوص القديمة بداية من "القرآن" حتى "ألف ليلة وليلة" ومرورا بأعمال أدبية وفلسفية ولغوية وشرعية. وإذا طرحنا جانبا ترجمات "القرآن" المعيبة فى كثير من الحالات وترجمات "ألف ليلة وليلة"، فإن ترجمات المستشرقين لم تستطع الوصول إلى عامة الجمهور إما لأنها تحيط ترجمتها بكثير من معلومات التبحر التى لا يمكن أن تهم إلا الأخصائيين، أو لأن ترجماتها تتوجه إلى المستشرقين فى طبعات محدودة النسخ.

وتهتم رابطة جيوم بوديه في الوقت الحاضر بنشر وترجمة نصوص عربية. وهذا مشروع ممتاز ومن الممكن أن يؤدى خدمات جليلة للمتخصصين غير المستشرقين الذين يودون تحسين معرفتهم بالحضارة الإسلامية. وقدمت الرابطة حتى الآن نصين: أولهما مقدمة لكتاب عن الشعراء عاش مؤلفه ابن قتيبة فى القرن الثالث للهجرة. ومن شأن هذه المقدمة أن تهم المتخصصين المعنيين بالتاريخ العام للنقد، ولكنها ليست سوى مقدمة ونود أن نرى الأستاذ جودفروا ديمونبين يهتم بالنص الكامل لكتاب ابن قتيبة هذا، فهو ملخص جيد لتاريخ الشعر حتى القرن الثالث للهجرة.

والثانى كتاب مجهول المؤلف يرجع إلى القرن الثالث ويقدم معلومات عن الهند والصين. والنص والترجمة ممتازان؛ ويهمان المؤرخين وعلماء الجغرافيا، ولكن هذا الكتاب ليس عملا أساسيا؛ وينبغى أن يقال مرة أخرى

إن ما دفع إلى نشر هذين الكتابين كان خيارا شخصيا. ويحسن برابطة جيوم بوديه أن تعمل وفقا لخطة محددة وموائمة لاحتياجات الدوائر العلمية وعامة الجمهور، ومتوافقة مع أهداف اليونسكو، وإن كان ذلك يتطلب تشجيعا ماديا وتعاونا وثيقا بين مستشرقى الغرب والشرق.

وتوجد ترجمات ممتازة تمت فى القرن الماضى ولم تصل إلى عامة الجمهور، ولم تتجاوز قط دائرة المستشرقين.

ولن أقدم منها إلا مثالين هما: ترجمة "مقدمة" ابن خلدون التى اضطلع بها دى سلان وتكشف عن رائد من الطراز الأول فى الفلسفة الاجتماعية عاش فى القرن الرابع عشر من التاريخ المسيحى؛ وترجمة "مروج الذهب" للمسعودى التى اضطلع بها باربييه دى مينار وهى تسلط ضوءا شديد الإيحاء على الحضارة الإسلامية في القرنين التاسع والعاشر من التاريخ المسيحى.

وهاتان الترجمتان وترجمات أخرى لم أذكرها جديرة بأن يعاد النظر فيها ويعاد نشرها. ولا شك أنها لا تثير كبير اهتمام لا فى أوساط مؤرخى الحضارة ولا بين القراء المتوسطين.

واليونسكو وحدها هى التى تستطيع إحياء هذه الأعمال التى لا يجوز أن تترك لتموت.

تصدير

بقلم الدكتور طه حسين باشا

كنت أرى فيما يتعلق بالاحتفال بالذكرى الألفية لأبى العلاء أن أفضل مشاركة لمصر فيه لا تكون إلا عن طريق استعادة تراث شيخ المعرة ونشر أعماله بعناية نقدية معاصرة. وقد عرضت هذا الاقتراح على وزير المعارف العمومية حين ذاك نجيب الهلالى باشا، فأقره وشكل لجنة من أجل الانتقال إلى مرحلة التنفيذ. وقدم لهذه اللجنة كل ما تحتاجه من معونة مادية. وسهل لها الشروع فى أداء مهمتها رغم الظروف الصعبة التى كان العالم يمر بها في تلك الفترة من تاريخه. وبناء على ذلك كان الوفد المصرى عند الاحتفال المقام فى دمشق فى سنة ١٩٤٤ فى وضع يتيح له أن يعرض على الحاضرين أول كتاب من هذا المجموع الذى تواصل العمل فيه دون انقطاع حتى الآن.

وعندما تحدثنا عندئذ عن الاحتفال بألفية أمير الفلاسفة المسلمين وأعظمهم دون منازع، الشيخ أبو على ابن سينا، رأيت أن أفضل مشاركة لمصر يجب أن تكون مماثلة لمشاركة بلدنا بمناسبة الاحتفال بأبى العلاء؛ فينبغى أن يبعث تراث الشيخ الشهير كما بعث تراث الشاعر "رهين المحبسين".[١]

---

(١) فى هذا الموضع من الأصل الفرنسى المطبوع على الآلة الكاتبة أضيفت حاشية كتبت بخط اليد لتفسير عبارة "رهين المحبسين" بالعمى منذ الولادة. ولكن من المعروف أن أبا العلاء حدد المحبسين فى لزومياته بأنهما "فقده لناظره" و"لزوم بيته". (م)

وقد عرضت هذا الاقتراح على السيد على بك أيوب وزير المعارف العمومية فى تلك الفترة، فأقره كما فعل نجيب الهلالى. وشكل بدوره لجنة واستعد لتزويدها بكل ما تحتاجه من معونة ومساندة لولا أنه ترك الوزارة قبل أن يتاح للجنة الوقت اللازم لتحقيق تقدم فى عملها. وربما كان من المقدر أن أكون وزيرا للمعارف العمومية.

وبناء على ذلك كانت أول فكرة خطرت لى هى أن أنجز المهمة التى استهلها سلفى على بك أيوب، وأن أزود اللجنة بما تفضل فوعد بتقديمه لها من معونة مادية وتشجيع. وكان ذلك سدادا لدين تجاه أمير الفلاسفة المسلمين. وكان ذلك أيضا أداء لواجب لم تسمح السياسة لعلى بك أيوب بأن يفى به. وأنا إذ أملى هذه السطور توجد أمامى مقدمات هذا العمل العظيم وينبغى أن يوجه أول إعراب لى عن الشعور بالعرفان إلى هذا الوزير المجتهد الذى سمع نداء العقل وأراد أن يلبيه رغم الخصومات السياسية.

أما فيما يتعلق بهذه اللجنة التى شرعت فى العمل وتعتزم الوصول به إلى غايته حتى يكلل بالنجاح إن شاء الله، فإنى أعرف حق المعرفة جميع الأعضاء؛ فكل من هم صديق لى، ومعظمهم من تلامذتى القدامى. وأنا أعلم أن أيا منهم لا يعنيه أن يشكر على ما يفعله من خير؛ فهم ينتمون فقط إلى تلك الفئة من الرجال التى تجد رضاها وسعادة نفوسها وراحة ضمائرها فى تحقيق الواجب والمشاركة فى عمل ذى أهمية عامة. وهم يعتقدون أن ثقافتهم تفرض عليهم ذلك الموقف، ويرون أنهم ملتزمون أمام رجال العلم.

يضاف إلى ذلك أنهم جعلوا الأفضلية للتراث الإسلامى بكل ما أوتوا من قوة وصلابة ووقت. وقد سبق لهم أن دفعوا لمعرفته ثمنا من شبابهم،

وهم اليوم يدفعون لإحيائه ثمنا من أيامهم المشرقة ومن لياليهم التى تكتنفها الظلمات. ولا تستطيع أي صعوبة أيا ما كانت أن تحيد بهم عن هدفهم؛ ولا يمكن لأى ظرف مهما كان حرجا أن يدفعهم إلى التراجع. فقد عاشوا من أجل الدراسة وهم يعرفون كيف يحيون بها ومن أجلها. وهم مكلفون بمهمة ملزمة وشاقة، ولكنهم يؤدونها ببسالة؛ وهم لم يبطئوا سيرهم، وهم لم يترددوا قط. وهم يحبون مهمتهم بسبب ما يتجشمون فى سبيلها من مشقة وجهد، وهم ينجزونها دون أن يلقوا بالا إلى ما تسببه لهم من هموم.

وذلك أن كل ما وجدوا أمامهم كان صعبا؛ فكتاب "الشفاء" الذى أخذوا على عاتقهم نشره كان أهم وأضخم ما خلفه ابن سينا من تراث فلسفي؛ كان هو الكتاب الذى نفذت شهرته إلى أعماق تاريخ الفكر الإنسانى. وقد كثر الحديث بشأنه دون تكوين فكرة صحيحة عنه، ولا يكاد يوجد تصور واضح له. ولم يجد الباحثون منه إلا نصا مشتتا فى مختلف أركان الشرق والغرب. وما طبع منه فى فارس لم يكن جادا على نحو واف ولم يتسم بأهمية كافية لمحاولة للنشر يراد بها إرضاء الباحثين والعلماء. ولكن اللجنة هيأت الفرص وطلبت المخطوطات. وتلقت المساعدة في هذا المشروع من الجهود المثمرة التى بذلتها إدارة الثقافة فى الجامعة العربية من أجل جمع كتابات ابن سينا حيثما أمكن ذلك.

ولم يقنع هؤلاء العلماء بالنصوص العربية والنسخ التى أعدت واستطاعوا الحصول عليها. بل درسوا ما بقى الآن من الترجمات اللاتينية لهذا النص فى العصور الوسطى. ودعوا إلى مصر الآنسة دالفيرنى، وهى فرنسية كرست لنشر هذه الترجمات جزءا مهما من جهودها وأنشطتها. وقابلوا بين النص اللاتينى الذى كان فى حوزتهم وبين النصوص التى وجدوها بين أيديهم؛ وازداد طموحهم وقرروا أن يحرزوا لوطنهم مجد نشر

النصوص العربية والنص اللاتينى القديم. وها نحن نرى أن هذه العناية بعمل ابن سينا لم تعد تقتصر على مصر، بل عبرت الحدود. ويشترك فيها جميع العلماء أيا ما كانت اختلافات الأجناس أو الدين، لأن العلم لا يعرف اختلافا من حيث الجنس أو اللغة أو الدين.

وقد مرت ثلاث سنوات منذ بدأ هؤلاء العلماء عملهم، وقد بذلوا فيه غاية جهدهم غير عابئين بما أصابهم من تعب؛ وهم يعملون فى مجموعات، كما يعملون فرادى، وهم يعملون فى مصر، كما يعملون خلال أسفار إلى الخارج. ويظل أفضل ما فى أنفسهم مشدودا أينما كانوا فى البلدان المختلفة إلى صخرة يستعصى على الإنسان كسرها.

وهذه الصخرة هى صخرة المعرفة التى لا تساعد تقلبات القدر إلا على زيادة صلابتها، وتجعلها اختلافات الزمان والمكان أشد مقاومة حتى تهزم الزمان والمكان. وهاهم هؤلاء الرجال يقدمون للعلماء والباحثين فى العالم بأسره مقدمات جهودهم المثمرة؛ وسيسارع سعاة البريد فى مصر إلى حملها إلى الذين سيحيون ذكرى ابن سينا فى بغداد وفى طهران، معلنين بذلك أن لوطنهم منهجا لاستعادة ذكرى الكتاب والفلاسفة فيسلط الضوء على تراثهم وينشر فى كل مكان، وتمنح حياة ثانية لعظماء الماضى.

إن هذه الطريقة فى الاحتفال بالذكرى هى فيما يبدو لى تفضل أى طريقة أخرى؛ إذ يبدو أنها الأنسب لإحياء ذكرى المفكرين وما خلفوه، وهى الأنسب لنفع الرجال ولحفظهم هم أنفسهم من النسيان. فأبو العلاء لم يترك وراءه فقط ذكريات تاريخية بلا أهمية عميقة، بل ترك كتبا تمتد نحوها الأيدى وترنو إليها الأعين وتدخل البهجة على القلوب والعقول. وتراث ابن

سينا مثله مثل تراث أبى العلاء يتألف من حقائق ولا يتألف من ذكريات تاريخية وطرف.

وأتوجه بالتحية إلى هذه المجموعة من العلماء الذين يقدمون لنا هذا الجزء من "الشفاء"؛ وأهنئهم بإخلاص على ما بذلوا من جهد، وما أحرزوا من نصر حقيقى، وما جلبوا من نفع للغير. وأجدنى أسعد إنسان إذ يخطر لى أننى أتحت لهم هذه الفرصة لقضاء أفضل جزء من حياتهم مع ابن سينا وللتمكن من الاحتفال بذكراه، ومن النضال بغية إحياء ذكراه وتخليدها وإعادة الحياة على خير وجه لأعمال أساسية دفنت فى مقبرة النسيان.

طه حسين

المعتزلة وليبنتز

سيدهش علماء الكلام المسلمون إن هم قرأوا ليبنتز عندما يجدون فى [كتاب] "ثيوديسى" أفكارا مألوفة لديهم لأنها تشبه على نحو مثير للاستغراب الأفكار التى ما زالت موضوعا للنقاش فى الأزهر عند دراسة مذاهب المعتزلة. فهؤلاء فى واقع الأمر يتفقون مع ليبنتز على نقاط غير قليلة. وسأكتفى بالإشارة إلى نقطتين:

أولا - الأولى هى مفهوم الله ذاته. فالمعتزلة كما نعلم أدانهم المسلمون من أهل السنة[1] لأنهم كانوا يرون أن صفات الله لا تنفصل عن ذاته. وكانوا يقولون إن الله سبب جميع الأشياء، وفيه سبب وجودها، وإنه بناء على ذلك واجب الوجود وقديم، وإن العالم بما أنه ممكن لا يمكن أن يوجد دون سبب كاف يسبب وجوده ويجعله مفضلا على عوالم أخرى ممكنة مثله[2]، وإن هذا السب الكافى يوجد فى عقل ( ) وإرادة ( ) الله؛ وذلك أن الله بما أنه واجب الوجود وله فى ذاته سبب وجوده يجب أن يكون عاقلا ( ) ومريدا ( ) وقادرا ( ). وهو بعقله يعرف الممكنات. وبإرادته يختار. وبقدرته يخلق. ولكن العقل

---

(١) هنا يقول المؤلف: "انظر" لكى يحيل إلى كتاب لا يذكره (وإن كان من الواضح أنه باللغة العربية)، بل يترك فجوة لتملأ فيما بعد بالعنوان، ثم يضيف البيانات التالية، المجلد الثالث، ص. ٢٥٩-٢٦٠، القسطنطينية، ١٣١١ هجرية. وهو يتبع فى الحواشى التالية نفس الأسلوب فى الإحالة إلى هذا المصدر ذاته وإلى مصدر آخر نشر فى القاهرة. (م).

(٢) انظر .....، المجلد الثالث،ص. ٣ و ٤.

والإرادة والقدرة ليست صفات منفصلة عن الذات الإلهية ( )؛ فهي ذات الله نفسها ( ). فلو انها كانت مغايرة لذات الله، لكانت إما واجبة الوجود وقديمة مثله؛ أو لكانت ممكنة ولا يمكن إذن أن تكون صفة لله، فالممكن لا يمكن أن يكون صفة لما هو واجب الوجود. وكان المعتزلة يعتقدون أنهم يثبتون بذلك وحدانية الله الكاملة ويتباهون عن طيب خاطر بلقب (أهل التوحيد)، أي أنصار الوحدة الإلهية.

فقد كانو مثل ليبنتز يثبتون وجود الله عن طريق إمكان العالم وضرورة وجود سبب كاف لوجوده. وكانوا كليبنتز أيضا يجدون ذلك السبب الكافى فى عقل الله وإرادته. وكانوا مثله أخيرا يسلمون لله بصفات العقل والإرادة والقدرة. ولكنهم إن كانوا يعترفون بوجود صفاته فيه، فقد كانوا يرون مثلهم مثل ليبنتز أن هذه الصفات هى عين ذاته.[1]

ثانيا – النقطة الثانية هى مفهوم العدل الإلهى. فالمعتزلة لم يتسموا باسم [أهل التوحيد] فقط، بل تسموا أيضا باسم [أهل العدل] أيضا، أي القائلين بعدل الله . فهم منذ البداية – بل وقبل أن يتعرضوا للتأثير العميق للفلسفة اليونانية، وفي فترة اقتصر تفكيرهم فيها على الخلافات السياسية بين المسلمين فى القرن الأول للهجرة – كانوا يرون فى البصرة أن الله بما أنه عادل مطلق العدل لا يمكن أن يعاقب البشر إلا حسب أعمالهم: فالرجل الصالح لابد أن يفوز بالنعيم الأبدى؛ والكافر يلعن، ومرتكب المعصية يرغم إلى الأبد على أن ينزل به عقاب يتناسب مع معصيته؛ وتلك هى المنزلة بين المنزلتين المخصصة للمسلمين الذين ارتكبوا المعاصى ولا يمكنهم بما أنهم لم

---

(١) انظر ليبنتز، Théodicée V

يتوبوا دخول الجنة ولا أن يحشروا فى زمرة الكفار الحقيقيين. ولا يستطيع الله أن يغير شيئا فى نظام الأشياء هذا(١) دون إخلال بعدله.

ويستتبع هذا المذهب بالضرورة مذهب حرية الإنسان، فبدونها يكون عدل الله باطلا. ولكن الله ليس عادلا فحسب، بل هو خيّر وحكيم. وهو بالتالى لا يمكن أن يريد إلا الخير.

وليس بين هذا المذهب وبين مذهب أصلح الممكن إلا خطوة واحدة. وقد خطا المعتزلة هذه الخطوة فى فترة مبكرة. فإذا كان الله لا يستطيع فعلا لشر لأن ذلك ما يأباه جوده وحكمته، فإن الخير الذي يفعله لابد أن يكون أصلح الممكن، وإلا لما كانا لله خيرا كاملا لخير، ولا حكيما كاملا لحكمة. والقول بأن هناك خيرا ممكنا لم يرد الله فعله هو انتقاص من كمال الله. وبداية من القرن الثانى للهجرة اكتمل مذهب أصلح الممكن ووجد فى البصرة وبغداد أنصارا من الاقتناع به والحذق فى الدفاع عنه مثل النظام(٢)، وأبو الهذيل()، وبشر بن المعتمر.

وصحيح أنه سرعان ما أثار رد فعل قويا من جانب أهل السنة؛ فلو أننا قرأنا مناقشات(٣) المسلمين أنصار وخصوم أصلح الممكن، لشعرنا على وجه اليقين أننا نقرأ الجدل الذى دار بين بيل [Beyle] وليبنتز. فهنالك نفس الطريقة التى تطرح بها المسألة لأن المعتزلة يثبتون مثلهم مثل ليبنتز وجوب

(١) انظر ....، المجلد الثالث، ص ٢٨٣.

(٢) انظر ...،المجلد الثالث،ص ٢٨٣.

(٣) انظر النقاش المطول البديع عن هذه المسألة في ....، المجلد الثالـــث،ص. ص. ٩٧-١٨٨، القاهرة، ١٣٣٠ هجرية. وانظر أيضا ....،المجلد الثالث،ص. ص. ١٤٠-١٦٥.

أصلح الممكن عن طريق جود الله وحكمته وكماله. كما نجد نفس الطريقة فى مناهضته لأن خصوم المعتزلة مثلهم مثل خصوم ليبنتز يحتجون من ناحية بوجود الشر، ومن ناحية أخرى بأن نظام أصلح الممكن من شأنه أن يحد من قدرة الله. ونجد نفس المناقشات المنصبة على التفاصيل لأن خصوم المعتزلة مثلهم مثل خصوم ليبنتز يحتجون عليهم بمعاناة الحيوان والأبرياء، وبموت الأطفال فى سن مبكرة.

والقصة التالية[1] تعطى فكرة عن هذه المناظرات:

سأل الأشعرى أستاذه أبا على الجبائي المعتزلى: "ما تقول فى ثلاثة إخوة، أحدهم كان مؤمنا برا تقيا، والثانى كان كافرا فاسقا شقيا، والثالث كان صغيرا، فماتوا فكيف حالهم؟ فأجاب الأستاذ قائلا: أما الزاهد ففى الدرجات، أما الكافر ففى الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة" [فقال الأشعرى: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟، فقال الجبائى: لا. لأنه يقال له: أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بعطائه الكثير وليس لك تلك الطاعات. فقال الأشعرى: فإن قال ذلك التقصير ليس منى، فإنك ما أبقيتنى ولا أقدرتنى على الطاعة]. فقال الجبائى: "يقول البارى جل وعلا: كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك[2].

---

(١) انظر...، المجلد الثالث، ص. ١٠٧.

(٢) لم ألتزم بنص القصة كما أورده المؤلف لأننى لا أعرف المصدر الذى نقل عنه، ولكن القصة ترد فى تنويعات مختلفة فى مصادر مختلفة. ونصها كما ترد هنا مستقى من ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، نقلا عن الإنترنت. انظر الموقع: http://aloloom.net/vb/showthread.php?t=16010 (م). ولكن لاحظ أن القصة كما يرويها ابن خلكان تتضمن عبارات لم يوردها طه حسين فى الأصل الفرنسى. ولذلك وضعت تلك الإضافات بين أقواس معقوفة. (م)

ودافع المعتزلة عن أنفسهم على نحو مماثل لليبنتز فأجابوا بقولهم إن الشر لم يرده الله، ولكن لم يكن منه مناص ونحن فى حقيقة الأمر لا نعرف جميع الأسباب التى تفسر أفعال سيد الكون؛ ونحن لا نعرف إلا أنه منزه عن أن يخلق إلا أفضل الممكن.

وهذا المذهب الإسلامي الذى يشبه أساسا مذهب ليبنتز يحمل اسمه ذاته،لأن كلمة ....[1] هى الترجمة الدقيقة للأمثل. ومن المؤكد أنه يجب الاعتراف بأن هذا المذهب تخلص لدى ليبنتز من نزعة التشبيه التي تثقله وتجعله ساذجا بدرجة أو بأخرى لدى المعتزلة، ولكن ينبغي ألا ننسى أن ليبنتز يأخذ ذلك على بيل، وأننا لسوء الحظ لا نعرف مذهب علماء الكلام البغداديين إلا عن طريق خصومهم الممعنين فى التشبيه هم أنفسهم. ومن المحتمل أننا لو كان لدينا عرض لأراء المعتزلة صادر عن أحدهم، لوجدناه مجردا من كثير من الشعوذات ومصاغا بطريقة أكثر جدا، لأن أنصار هذا المذهب كانوا أكثر علماء الكلام المسلمين تفلسفا.

وهل من قبيل المصادفة البحتة وجود هذا التشابه، وأكاد أقول هذا التماثل الكامل بين المذهبين؟ أم أن المعتزلة أثروا على ليبنتز من خلال الفلسفة المدرسية؟

ذلك سؤال لا أسمح لنفسى بأن أجيب عنه. ويكفينى أننى طرحته.

---

(١) لم يورد المؤلف الكلمة العربية التى يعنيها، ولكن يبدو أنها كلمة "الأصلح". (م)

قوة القرآن من الناحية الصوفية
مشروحة لغير المسلمين

المسلم الذى تضلع فى معرفة المأثورات الإسلامية وتربى فى وسط بلغ فيه تقديس جمال القرآن طورا متقدما يتعرض لتأثير هذا الكتاب الشهير إلى حد وبقوة لا يعدلهما شيء آخر فى هذا العالم. فالقرآن يضع المسلمين الذين تشبعوا به فى حالة من النشوة فريدة تماما؛ إذ يشعر المرء عند الاستماع إليه بأنه يرقى إلى مستوى يعلوه، وينفتح أمامه عالم جديد؛ وتستولى عليه سعادة صوفية، غبطة من طبيعة المتعة الروحية. وباستطاعتنا لكى نكون فكرة عنها أن نتذكر ما لا بد لكبار الموسيقيين أن يشعروا به فى أسمى لحظاتهم. وتأثير القرآن على المسلمين ذو طابع معجز والمعجزة من الوضوح بحيث لا نحتاج إلى تحليلها. فالمعجزة تكتنفنا بسرها العميق وتمس نفوسنا بعمق عميق بحيث نسلم بأن طبيعتها قريبة شديدة القرب من سر النفس الأعظم ومن الله. ولم يحدث قط أن كان لعمل أدبى تلك السيطرة التى مارسها القرآن على القادرين على تقدير قوته.

ومن سوء الحظ أن الأوروبيين، مثلهم مثل الهندوس واليابانيين فيما أعتقد، لا يدركون فى القرآن شيئا من ذلك. وقد يكون من الصحيح أن يقال إنهم صم عن جمال القرآن كما يكون المرء أصم عن الموسيقى، ولكن ذلك لا يتقدم بنا فى البحث كثيرا.

وبناء على ذلك اضطلعت بهذه الدراسة الموضوعية للكتاب العظيم بغية أن أشرح لغير المسلمين تأثير القرآن الفريد؛ بل وقد يكون من الأفضل أن أقول لغير العرب بدلا من أقول لغير المسلمين لأن العرب، بما فى ذلك المسيحيين أنفسهم، معرضون لهذا التأثير. وكان على أن أتخلى للحظة عن عواطفى كمسلم لأننى لا أسعى إلا لدراسة ظاهرة ذات طابع أدبى.

ولنبدأ بالوقائع.

رجل عمره أربعون سنة أمضى حياته في مكة فى سلام واعتدال وبكثير من التميز. كان شديد الانضباط، فحرص على الامتثال للعرف القائم ولم يسمح بالظهور لأى عرض من أعراض حركته الثورية القادمة. وهو حتى ذلك الحين لم ينبس قط بكلمة تشبه القرآن. والقرآن يذكر بهذه الحقيقة. ثم يشعر الرجل على نحو فجائى تماما برغبة لا تقاوم فى الرحيل عن مكة وقضاء بعض الوقت فى الصحراء، فى عزلة غار. وهو فى وحدته يتفكر معذب النفس وتغزو قلبه مشاعر بغير نظام. وهو يسعى مضطرب النفس إلى أن يخضع للنظام فوضى أحاسيس جديدة لا عهد له بها.

كانت الصحراء الممتدة إلى أقصى مدى تحيط به، فلا بد أنه وجد فى هذا الفضاء الرحب – فى السكون النابض الذى لا تتيحه إلا الصحراء وفى هدوء الليالى المرحبة فى تلك المناطق – راحة وسلوى من آلام روحه. ونظرا لأنه لم تتح له الفرصة قط لكى يضع هذه الخبرات فى شكل معروف، فقد كان يشقيه افتقاره هذا إلى الوسائل اللازمة لإضفاء شكل مناسب على مشاعره إما عن طريق العمل، أو عن طريق الكلام. وذلك شقاء مفهوم يعرفه كثير من الأشخاص فى لحظات أقل إثارة للقلق.

وذات مساء أصبح الأمر يفوق طاقته. كان مرهقا ووجد نفسه فى حالة من النشوة عذبته بفظاعة. ووجد نفسه فجأة ينطــق بألفــاظ عربيــة غريبــة ومفهومة وإن لم تكن تشبه شيئا مما قاله أو سمعه يقــال حتــى يومــه ذاك. والغريب فى الأمر أنه يستشعر الخوف من هذه الألفاظ التى ينطق بهــا هــو نفسه. وهو لا يدرى ماذا عساه يفعل فى حضرة هذا الوحى. والأثــر النــاتج هنا عنيف لا يقاوم وساحق كما هو الحال فــى جميــع اكتــشافات الحقــائق العظمى. وهو يستشعر فى هذه الألفاظ صفة خاصة، وهو رغم اتصال خوفه يخضع لتأثيرها الغامض. وكان فى حاجة إلى قضاء بعــض الوقــت لكــى يستعيد قدرته على الحكم الواضح (وهى قدرة كان فخورا بها) ولكــى يقــدر قيمة اكتشافه حق قدرها. وهو يتلو هذه الآيات القليلة على زوجــه فتجــدها بدورها رائعة.

وهى تشجعه على تصديقها لأنها أكثر منه ثقة. وشيئا فــشيئا تتــراكم الكلمات ويشتد أسرها. ويجد محمد فى نهاية المطاف الشجاعة على ترديــدها سرا على مسامع بعض الأصدقاء الذين يتبين أنهم مقتنعون بهــذه العبــارات البسيطة دون أن يخامرهم فيها رأى آخر. بل ان الأشخاص الذين كــان مــن شأنهم أن يروا فى هذه المفاهيم الجديدة ما يضر بمصالحهم لــم ينجــوا مــن التأثير المعجز.

وتقع أشياء لا تصدق. فثمة عربى بدوى على صهوة حصانه أو علــى ظهر جمله يسمع بالمصادفة بعض آيات القرآن؛ فيتوقف ويجد الشخص الذى يتفوه بهذه العبارات الجذابة، فيعاهده على الوفاء ويضع حياته تحت تصرفه. ويشمل البلاد تيار من الحماس. ورغم أن الــسكان كــانوا رحــلا متفــرقين

ويقيمون ما زالوا على المثل العليا للأجناس البدائية، فقد ألفـوا فـي بـضع سنوات أمة قوية تحت راية القرآن لها مثل أعلى. فقد وحد القرآن بينهم لأنهم كانوا مجمعين على حقيقة واحدة، هى الطابع الإلهى للقرآن.

هذه الوقائع لا تقبل الشك. ولكن سعى البعض إلى التقليل من أهميتهـا بالاستناد إلى حالة العرب البدائية. وادعى البعض أن إبهار سكان الـصحراء القاحلة البسطاء هؤلاء لم يكن يقتضى الشيء الكثير. وهو موقف يسهل فهمه فى حالة علماء القرن التاسع عشر، ولكن عفى عليه الزمن. فهؤلاء العلمـاء الذين أسكرتهم مكتشفاتهم الجديدة كانوا ذوى أحكام قاطعة فيما يتعلق بجميـع الظواهر. فهنالك محور الخط المستقيم، والطابع النهـائي للقـوانين، لقـانون الجاذبية، وقانون حفظ الطاقة، والضوء، ولا تناهى الكون، ومعرفة الأشـياء التى تخرج عن نطاق الزمان، والفلسفة الثابتـة، والفـصل بـين الطبقـات والأجناس. أما اليوم فقد تغير كل ذلك. وذلك أن عصرنا هو عـصر نـسبية المنحنيات فى المكان، عصر الكون المتناهى والمتزايد عظما. بل لقد أصـبح هناك اعتراف بالغائية فى الظواهر الطبيعية مثل النشاط الإشعاعى؛ ذلك هـو عصر فلسفة الحركة والزمان والتغير منظورا إليها بوصفها جوهر الأشـياء المادية ذاته. ولم يعد هناك ما يمكن تأكيـده علـى نحـو قـاطع. والعلمـاء الأوروبيون متقدمون بمقدار نصف قرن على الأقل علـى معاصـريهم مـن رجال السياسة، والمال، والنقاد وغيرهم. فقد أثبتوا على نحو نهائى أن الناس في أعماقهم متشابهون على نحو مهين للمتحذلقين. وقضى علمـاء التحليـل النفسى بالضربة القاضية على كل فكرة تقول بالتفوق الفطرى لبعض الأفراد أو بعض الأمم. وقوة الشعور الباطن صارت أمرا مسلما به، وهـى متماثلـة تقريبا لدى جميع البشر.

ثم إن الظاهرة تكون عظيمة بقدر اتساع نطاقها. وليس من المهم الوقت أو المكان الذى وقعت فيه. ومن الغريب أن نلاحظ أن بعض الناس الذين أضنوا أنفسهم بحثا عن تفسير لمغزى ظاهرة قليلة الشأن مثل التكعيبية يجهلون أو يتجاهلون ظاهرة فريدة وهائلة مثل تأثير القرآن على الملايين والملايين من البشر.

ولدينا إذن كل الحق فى معاملة هذه الظاهرة بوصفها من أعجب ظواهر التاريخ، ولا سيما أن أداة هذه الحركة التى نشأت بين الأميين عمل أدبي، وهو ما يزيد نجاحها غرابة على غرابة.

والموضوع الرئيسى فى جميع الكتب المقدسة هو حث الناس على فعل الخير والامتناع عن الشر. وليس هناك ما هو أسهل من إلقاء مواعظ من هذا النوع. ولكن يختلف عن ذلك تماما التأثير على الناس والارتقاء بهم مما يجعلهم يعيشون وفقا لقواعد ضمائرهم، وحملهم على قبول التضحيات اللازمة. وإذا كان هؤلاء الناس ينتمون لجنس بدائى ومترحل ولا عهد لهم بممارسة الأفكار المجردة، فإن دمجهم فى أقل من ثلاثين سنة فى أمة قوية وموحدة تخرج إلى غزو الإمبراطوريات الكبرى المجاورة بغية هدف واحد هو حملهم على الإيمان بإله واحد يبدو أمرا معجزا. وهولاء العرب الشجعان لم يتساءلوا قط عن أعداد الجيوش التى يتعين عليهم مواجهتها ولا عن مدى قوتها. كان المقاتل العربى يرفع فى غمار المعركة سيفه لهزيمة خصمه ولم يكن هذا الأخير مطالبا بشيء سوى أن يقول: "لا إله إلا الله"، وكان العربى يلقى بسيفه لكى يعانق رفيقه الجديد. ومثل هذه الوقائع تثبت أن هؤلاء العرب كانوا فى حالة من النشوة والجموح لا تصدر إلا عن مثل أعلى شديد السمو.

وليس هناك ما يستعصى على المقاومة مثل رجل عمل تتملكه فكرة مجـــردة يكرس لها كل طاقته.

وكثيرة هى القوى التى جعلت من هذه النتيجة أمـــرا ممكنـــا. فوضـــع الإسلام بين اليهودية التى تميل بشدة إلى استوجاب العواقب الطبيعية لأفعالنـــا وبين المسيحية الميالة بشدة إلى مغفرتها، كان لا بد أن يجعل الإسلام مقبـــولا لدى قسم كبير من البشر. والاكتشاف الخطير الذى ينظر إليه بوصفه عبقرية الإسلام هو *التقوى* التى تفترض انسجاما كاملا بـــين الأخـــلاق والحيـــاة – انسجاما لا يوجد إلا قليلا فى العهد القديم علـــى حـــساب الأخـــلاق، وفـــى المسيحية على حساب الحياة. غير أن هذه الاعتبارات لم تسهم بشيء رغـــم أهميتها فى حركة المسلمين الأوائل من العرب. ولا أريد أن أتـــصدى هنـــا لدراستها، بل أريد فقط أن أشير إلى أن الحركـــة بأســـرها أنجـــزت بفـــضل القرآن، وسأحاول أن أدرس كيف استطاع القرآن أن ينجح فى إنجازها.

لقد نجح بفضل قيمته الأدبية وحدها. والبعض يأخذ عليه افتقاره إلـــى المنطق وإلى التسلسل فى الأفكار. ولكن ليس ثمة حاجة إلى أدلة دقيقة ذكيـــة فيما يتعلق بدفع الرجال إلى إثبات تلك القدرة على العمل. بل ينبغى الاستعانة بما هو أشد عمقا لدينا، وأقول أشد إنسانية، من الذكاء. فكارلايل، مع تقـــديره للحركة الإسلامية ولإخلاص النبي بصفة خاصة، لم يستطع أن ينأى بنفسه عن التصريح بأن القرآن فى رأيه يتصف بغباء نادر المثال. وكان يفضل منطقـــا أكثر دقة، وتسلسلا فى الأفكار أكثر وضوحا، وترتيبا فى العـــرض، وكـــان باختصار يريد كتابا يخاطب الذكاء. فالذكاء بالنسبة له، كما كان بالنسبة لغيره من فلاسفة عصره، هو كل شيء فى حياة البشر. وعلينـــا أن نـــصحح هـــذا

الخطأ، فالبشر يهتمون بهذه الأدلة الذهنية ويستمتعون بها، ولكن لـيس لهـذه الأدلة من القوة الدينامية ما يقودهم إلى العمل. انقضى وقت عبـادة الـذكاء. والذكاء ما إن يزاح عن العرش يحتل مكانه المشروع ولا يوقعنا فى الخطـأ كثيرا. وهو يمثل فينا الصفة العليا للحيوان، ولكن الإنسان ليس حيوانا عـاقلا فحسب. وليست تلك صفته المميزة. كلا وليس هو "بالقصبة المفكرة".(١) بل هو كائن يتمتع بالضمير الذى يميز الخير والشر، والجميل والقبيح، وهو باختصار حيوان فنان قادر على إصدار أحكام القيمة. وقد حاول بعض الفلاسفة التفرقة بين الذكاء والغريزة، ولكن من الواضح أن الاثنين ازدهار للميلين في عـالم الحيوان. ولدينا شيء لا يوجد لدى الحيوانات على الإطلاق، وهـو الـنفس، والضمير، والذوق، وهى ثلاثة أشياء يحق لنا أن نعتقد أنها تعد شيئا واحـدا. وهو ما يفسر لنا أن نقص الأدلة التى تخاطب الذكاء لا يقلل في شيء من قيمة القرآن ومن قوته. وهناك كتب أشد ذكاء من العهد الجديد، ولكن ما هو تأثيرها على البشر؟ وأستطيع أن أذكر ما يشبه ذلك من المآخذ المبتذلة التى تؤخذ على القرآن. فقد يكون من الأمور المبتذلة الحض على الفضيلة، وحث البشر على رؤية ما هو واضح شديد الوضوح والإيمان بقوة خالقـة؛ ولكـن هـذا هـو الموضوع الوحيد لجميع الكتب المقدسة. أما أن يصنع من هذه الأمور المبتذلة أدب رائع، فتلك هى الظاهرة التى نود دراستها.

...

(١) "القصبة المفكرة" : عبارة مجازية مستعارة من باسكال. ويبدو أن المؤلـف – علـى عكس باسكال – لا يرى أن الإنسان كالقصبة الضعيفة التى تستمد قوتها مـن كونهـا مفكرة؛ بل يرى أن الإنسان يستمد قوته الرئيسية من كونه ذا ضمير. (م)

ولكن هناك بالإضافة إلى ذلك الصفة الرفيعة للوحة، وهى الصفة التى تجعل منها إبداعا خالدا، أى تشكيلها. وهى غير المدرك، وغير الواعى، والعميق الشديد العمق، وما لا يحاكى، وما لا يسبر غوره فى العمل الفنى. الجمهور يشعر بتلك الصفة بشدة ولكن من الصعب جدا تحليل سببها. وهى لا تعتمد على الذكاء، بل تنتمى إلى مجال آخر، مجال النفس، مجال الصفات الإنسانية فى المقام الأول. وهى لا تنقل ولا تتعلم. وهى متميزة تماما عن الأسلوب. فالأسلوب يتحسن بمرور الوقت، وهو فضلا عن ذلك سمة لكل ما يعتمد على الذكاء الذى هو قوة تنظيمية وتراكمية فى المقام الأول، بينما يوجد التشكيل فى أكثر صوره تقدما لدى البدائيين.

فالفنانون البدائيون الإيطاليون مثل ماساشيو يتميزون رغم الصعوبات الناجمة عن قصورهم التقني بتشكيل لا يوجد حتى لدى رافائيل. وهنا إذن اختلاف أساسى بين الأسلوب والتشكيل.

ونحن نجد فى فترة شباب الفن أجمل التشكيل. فقبل أن تتجمد الكلمات فى معناها الدقيق المحدد الرمزى، وقبل أن تصير العلاقات القائمة بين الأشياء المشار إليها بالألفاظ معروفة بوضوح شديد ومهمة أكثر مما ينبغى، تصبح العلاقات بين الألفاظ نفسها طاغية. وأعظم الشعر – وليس للشعر من قيمة إلا إذا كان يدين بقيمته للتشكيل – يوجد دائما أثناء شباب اللغة. ففى نشوة الصبا تبدع اللغة أجمل الأشياء.

وتطور الذكاء والمنهج والعلم يقتل التشكيل ويقتل الشعر والفن بصفة عامة. وعندما تأتى مرحلة الكتب للغة بلغت نضجها يلجأ إلى التوثيق ولكن لا يستشعر الحماس.

والتشكيل انعكاس للنفس، هو صورتها المرتسمة فى الخارج أو على الأقل تمثيل لصفة من أبرز صفاتها. هو الواصلة بين الإنسان ووسطه. وما إن يتحقق الوصل حتى يحدث التراخى كما لو أن شيئا لم يعد يساوى جهد الإبداع. وكلما اشتدت قوة التشكيل فى الإبداع القومى، كثر وجود ذلك الإعياء الذى يعقبه. فكأن مهمة الإنسان هى السعى إلى تمثيل النفس فى صورة ما. وتلك هى أقوى وسيلة لتحريك مشاعرنا وهى فى نفس الوقت غاية جهودنا. وسنرى أن القرآن هو المثال الكامل للتشكيل فى اللغة لدى قوم كانت اللغة تمثل قوتهم الفنية الوحيدة؛ وقد أثار القرآن حماس العرب بشدة فلم يعد فى مقدورهم إلا نشره. وبعد ظهور الإسلام بفترة قصيرة جدا أصاب الإعياء العرب الحقيقيين ولم يبق إلا رماد النار التى أحرقتهم. ونحن نجد فى ربيع اللغة بصفة خاصة أجمل الأعمال التشكيلية. ففى تلك الفترة يحس الناس بالحقيقة كما لو كانت شيئا ماديا. هنالك تختلط المادة بالمجرد. فهم لا يتصورن المجرد، بل يبصرونه، ويلمسونه، ويشمونه. وذلك ما يوقفه تطور الذكاء، ويضع فاصلا بين المجرد والمادى. والتشكيل فى الحالة الأولى سهل وطبيعى، ومن ثم كان التشكيل الرائع فى جميع الكتب المقدسة. وليس بمستطاع المحدثين فهم هذه الكتب بالطريقة القديمة. ولسنا نجد فى الفن وحده أقوى تشكيل، فمن الممكن أن يظهر ذلك في الأفكار أو فى العمل ثم تأتى الشيخوخة دائما عقب إنجاز العمل التشكيلى الأساسى للفرد أو الإقليم بفترة قصيرة. فقد شاخ اليونانيون فورا بعد أرسطو، وشاخ الرومان بعد إمبراطورية قيصر، وهما عملان مثلا عبقرية كل من الأمتين.

وليس من السهل إدراك سر التشكيل القوى. ولكن يمكن أن نقـول إن الموسيقى هى تشكيل الزمان، وإن التصوير والنحت والعمارة تشكيل للمكان. أما فى حالة اللغة فإن التشكيل يتحقق فى الزمـان والمكـان. وقـد درسـت العلاقة بين الرسومات وأسـاس اللوحـة تحـت عنـوان "تـأليف المكـان" (*space composition*) بوصفه السر فى مجد مدرسة بيـروجين ورافائيـل. والتشكيل الأدبى أكثر تعقيدا والأمثلة الكاملة ليست كثيرة. ويبحث عنه بصفة خاصة فى النتف القليلة من شعر كبار الشعراء فى أسمى لحظاتهم. ولكننى لا أعرف عملا يمثل بأكمله مصدر إلهامه ووسط موضوعاته ونفسها كما يمثـل القرآن بتشكيل الصحراء والشعوب العربية.

وليس لدى ما أقوله للذين لا يستطيعون أو لا يريـدون أن يـروا فـى الصحراء سوى امتداد فسيح قاحل وميت من الرمال. ولا يمكن الحديث عـن تشكيل الموسيقى للذين لا يجدون فيها سوى ضوضاء أو الذين لا يرون فـى تشكيل للسيدة العذراء سوى امرأة. ومع ذلك فإن الكثيرين منـا يجـدون أن للصحراء نفسا، وحياة، وشخصية أكثر تميزا من المشاهد الطبيعية الأخـرى. أما الذين لا يغريهم القحط، فإنى أقول لهم إن موضوع العمـل الفنـى لـيس مهما. فالأمر المهم هو لطف تشكيله ودقته وقوته.

فأين نجد الصحراء فى القرآن؟ لنبدأ بتشكيل المكان. المحدثون الـذين هم رياضيون أساسا يأخذون على القرآن الافتقار إلـى المنطـق والنظـام. فلننظر الآن إلى مرأى الصحراء ولا سيما الطرق التى تعبرها بصفة خاصة. فهى متعرجة دون سبب، وهى تلتف التفافا ضخما تلافيـا لعقبـة صـغيرة، وتتسلق التلال بدلا من أن تسلك أوضح المسـارات. وهـى تحتـوى علـى

انحناءات وانحناءات بلا نهاية؛ والخط المستقيم ليس بالشيء الطبيعي في الصحراء. ولا يعد ذلك نقصا في المنطق، بل هو منطق خاص للصحراء لا يمكن أن يكون غير ذلك. ومنطق الرياضيين لا مكان له فيها وغير ذي موضوع. فالأمر الوحيد المهم هو الغاية المستهدفة والتي يراد بلوغها دون انتباه كثير للطريق المتبع. والفارق بين القرآن وعرض فلسفي جيد عصري هو نفسه الفارق القائم بين الطريق من مكة إلى القدس وبين طريق للسيارات. ومن الممكن تفسير كل الالتفافات وانعدام النظام عندما نتذكر أن الهدف والمقصد لا يغيب عن الانتباه. ويجب أن يوجد لدى المرء إحساس شديد بالاتجاه كما وجد عند العرب لكي يدرك أن في القرآن اتجاها واضحا عبر هذا الاختلاط ونقص النظام وهذه المنحنيات اللانهائية. ويشعر المرء بأنه يضل الطريق من حين إلى آخر، ولكنه لا يلبث أن يدعى إلى الهدف الرئيسي للكتاب، وهو تمجيد كائن واحد مجيد لا نهاية لمجده. وأنا شخصيا أجد في هذه الحالة بالذات العلامات الأولى لتشكيل الصحراء ولعقلية الشعوب المترحلة. ولنتذكر أيضا أن هذا الافتقار إلى التسلسل في الأفكار لا يصدم إلا ذكاءنا، ولكن نفوسنا أبعد ما تكون عن الترتيب الشديد وفقا لمنطق عقولنا. فالأفكار تحت تأثير الانفعالات القوية وفي أحلامنا تنبثق من أعماقنا ذاتها دون ترتيب، فكأنها تتحدى المنطق والعقل، ولا يحدث التبلور إلا بعد وقت. والاضطراب البادي في الأحلام صورة دقيقة لحالة من حالات نفوسنا، وعلى هذا النحو ذاته لا أرى في انعدام الترتيب في القرآن صورة لنفس الصحراء والعرب فحسب، بل أجد فيه صورة للطبقات العميقة من النفس البشرية.

ولننتقل الآن إلى حالات التكرار. من المهم أهمية أساسية وجود قدر من التكرار في جميع الأعمال الفنية. ففي الموسيقى وفي العمارة والتصوير لا غنى للجمال عن تكرار التيمات. وهناك تكرار مبتذل رتيب قاتل. فمن شأن سلسلة من التماثيل النصفية للأباطرة الرومان أن تصدم الذوق، لأن التكرار هنا بلا شكل. والفارق بين نوعي التكرار، الجميل والقبيح، لا يسهل تفسيره، ولكن من السهل جدا ملاحظته. وحالات التكرار في القرآن بالنسبة لغير العرب تفتقر إلى التشكيل. فلنتفحصها.

اللغة العربية تعرف السجع وتستحسنه جدا، والسجع هو انقسام النثر بوضوح إلى عبارات قصيرة إلى حد ما تنتهي بقافية تتكرر مرتين أو ثلاث مرات. وتلك سمة من سمات اللغة العربية لا نجدها في اللغات الأخرى. ولما كانت العربية لغة قبائل مترحلة تسافر في قوافل في الصحراء، فقد كان السجع جميلا وطبع اللغة بخاتم طبيعي يتضمن تشكيل الصحراء بوضوح. ولكن عندما أصبحت العربية لغة بلدان عصرية وعلمية العبارة، اختفى السجع. فهو شكل ممعن في الصحراوية بحيث لا يمكن استخدامه بنجاح في الأعمال العصرية حيث يبدو لي دائما كمفارقة تاريخية. ومن السهل تماما تفسير السجع بشكل الصحراء. فقد كان من المألوف أن يضل المرء طريقه أثناء سفر طويل في الصحراء إذا لم يقسم الطريق دون وعي إلى أجزاء صغيرة قاطعة تحدها معالم تتكرر طيلة الرحلة. أما تسلسل العبارات الطويلة ذات الأهمية المتصلة من البداية حتى النهاية، وتقدمه عبر أوصاف وعمليات عقلية معقدة وانقطاعه أحيانا بوقفات تتفاوت طولا وقصرا، فهو أمر غريب تماما على لغة العرب في بلاد العرب. والسجع بالنسبة لهم تعبير صحراوي شأنه شأن معالم الطريق ذات الأهمية الأساسية للحياة في الصحراء. والسجع في القرآن لا يحاكى. والمؤلفات وفقا لهذا الشكل من أشكال الأدب العربي

بعد القرآن تشبه بالأحرى تلك السلسلة من التماثيل النصفية التى أشرت إليها منذ قليل. وفى هذه الحالة أدى مفهوم الترتيب والمنطق الهندسى المسيطر فى المدن إلى جعل السجع خليطا لا يطاق من المدينة والصحراء يطابق نفس مرحلة التطور التى شهدتها تيمات الرسومات التى تتكرر إلى ما لا نهاية وتسمى أرابسك دون سبب كاف. وتميل العبارات في هذه المؤلفات إلى أن تكون بنفس الطول تقريبا، وتتردد القوافى بانتظام كل جملتين. ويبدو العمل المؤلف بأسره مصطنعا شديد التكلف. والترتيب والتماثل الغريبان على الصحراء يقتلان تشكيل السجع. وكثيرا ما يستخدم السجع فى القرآن؛ وهناك سور تقفى فيها جميع العبارات، ولكنها غير متساوية من حيث الطول. ويشتد الاعتماد على القافية فى بعض الحالات ويقل فى حالات أخرى، وقد يحدث أحيانا أن تبتعد عبارة واحدة عن السجع. وتتسم القوافى بطابع مميز، فمنها ما هو متنوع ومتدفق ومنها ما هو قصير وقاطع. وكل ذلك يجعل المجموع أشبه بمظهر الصحراء، أو تعبيرا عن البداوة فريدا فى الأعمال الإبداعية الأدبية. والحكم على مثل هذا العمل بمقارنته بالكتب البسيطة لا يمكن أن يكون إلا حمقا من جانب النقاد ولا يدل على شيء سوى انعدام الإحساس لديهم بالصفات الأساسية للقرآن.

ويبقى بعد ذلك تفسير التكرار الدائم فى كل أجزاء القرآن لنفس الأفكار، أى عظمة الله، والإيقان بالبعث، وغير ذلك من المواعظ على اختلاف أنواعها. وبناء على هذا الأساس المؤلف من أدلة بسيطة، ونصائح أخلاقية، ووعود لفاعلى الخير ووعيد لفاعلى الشر، ومن الدعوة المتكررة إلى الإيمان بإله واحد بصفة خاصة – أقول بناء على هذا الأساس الذى لا يتضمن كثيرا من المظاهر المختلفة، تتناثر هنا وهناك واحات تتسم بطابع أكثر تنوعا، وأكثر عذوبة، وأكثرإمتاعا، وذلك مثل قصة التكوين، وقصة آدم

وحواء، وقصة بنى إسرائيل بصفة خاصة. وتشبه قصة بنى إسرائيل منجما تستخرج منه عند الضرورة كل التجارب وكل النصائح التى يمكن لتاريخ الشعوب تقديمها. وقد لا نجد فى بعض الأحيان سوى عبارتين أو ثلاث للتذكير برواية تاريخية وفى أحيان أخرى تروى الحكاية بتفاصيلها الكاملة. وهذه الواحات الحقيقية رائعة فى نوعها؛ فهى قاعدة يستمد الروح منها زاده، ومقصد للنصائح التى سبقتها وتعلة لتقديم نصائح أخرى. والواحات شديدة الإمتاع للمحدثين ولا تقل فى شيء عن أفضل القصص فى العالم. وأسلوبها موجز يخلو من التكرار ويختلف تماما عن الأسلوب فى الأجزاء الأخرى. فقصة يوسف، وقصة الخروج، وقصة ميلاد المسيح تنطوى على تسلسل، وعلى منطق وترتيب لا نظير له. وأنا أنصح الأوروبيين الراغبين في إدراك ما هو القرآن أن يبدأوا ببعض المقاطع المختارة التى تجتمع فيها هذه الواحات. فسيجدون عندئذ عملا يعجبهم أعظم الإعجاب. وستترك هذه المجموعة من الواحات انطباعا غامضا عن المدينة أو أنها على الأقل ستكون مفهومة لأهل المدن. ولكن القرآن لن يكون عندئذ هو القرآن، ولن يكون الصحراء، ولن يكون هو الكتاب الذى ألهب العرب بالحماس. بل سيكون أقل بكثير من القرآن، ولكنه سيكون بالنسبة للأوروبيين أسهل فهما وأشد صدقا من الترجمات الحرفية التى لا قيمة لها وليست صادقة إلا فى الظاهر. وهى أفضل طريقة للكذب. ومثال ذلك أننا نجد الترجمة العربية الحالية للإنجيل، رغم كونها ترجمة حرفية، لا تحتمل بقدر يفوق عدم احتمال ترجمات القرآن الأوروبية. ولهذه الواحات إذن قيمة كبيرة بالنسبة للمحدثين، ولكنها لن تتضمن وحدها نفس التشكيل الصحراوى إلا إذا سبقها وتلاها الامتداد العظيم الرتيب لأساس اللوحة. وعندئذ يرى فى كل مكان الهواء الطلق وتظهر الرؤيا الحرة فى الأساس وفى هذه الواحات على السواء. وعندما يقتضى

الأمر صنع لوحة، فإنها تصنع دائما بأقصى اقتصاد فى العبارة، من بعض العبارات التى تشبه خطوطا ممتدة عظيمة تحيط بالسماء والأرض. ومثال ذلك وصف نهاية الطوفان: "وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى، وغيض الماء... واستوت على الجودى وقيل بعدا للظالمين". ومن المستحيل فى ترجمة لهذا النص التعبير عن التشكيل القوى الرائع لهذه الآيات.

ويتضمن القرآن بالإضافة إلى ذلك التشكيل الشديد اللطف للزمان. فهناك أولا ما يمكن تسميته بسرعة الأسلوب. ولكل عمل أدبى سرعة خاصة ينبغى قراءته بها. وهناك مؤلفون يستوجبون أن يقرأوا ببطء أو بسرعة. والقرآن يتحرك ببطء. وقراءة القرآن بسرعة يعنى فقدان الكثير من جماله. وهو على أى حال لم يصنع لكى يقرأ. بل يجب سماعه مرتلا ببطء. وتناوله على نحو مختلف يقضى على قدر كبير من تشكيله. وشبيه بذلك ما يحدث عندما تدرس لوحة لرمبرانت نسخت مثلا على شكل نقوش بارزة منخفضة على الخشب. سيكون ذلك بمثابة رؤية هيكل عظمى أو جثة لعمل فنى أشبه بما يحدث عند نسخه بمادة أخرى غير المادة التى صمم بها. والقرآن صمم مقروءا وليس مكتوبا، وللقراءة ببطء فضلا عن ذلك. ونحن نشعر بحاجة إلى الإسراع عند إلقاء حديث عربى مفعم بالنشاط، ولكننا نضطر عند الاستشهاد بنص من القرآن إلى التحرك بتؤدة وفقا لإيقاع محدد. وتلك صفة غامضة شديدة الغموض لتشكيله.

ولننظر الآن فى صفة أخرى للزمان يصعب إدراكها. فالشعور بالزمان يتوقف على الحياة، وإذا لم تكن الحياة شديدة الحدة، وإذا لم تأت مظاهرها المختلفة فى أعقاب بعضها البعض، اتسم الزمن بمظهر شديد الغرابة. فعندئذ

تمر مدد زمنية قصيرة ببطء شديد بينما تمر مدد طويلة غير ملحوظة؛ تمـــر الأيام بتثاقل فى حالة الوحدة بينما تمحى السنوات بسرعة تفوق سرعة الأيام. وتلك على وجه التحديد هى نفس الظاهرة التى تحدث فـــى الأســـفار عبـــر الصحراء، فالمدة الطويلة هي مدة السير حتى بلوغ الشجرة القادمـــة، حتـــى المعلم التالى. والقرآن طويل شديد الطول، والترتيب فيه تجريبـــى، وحـــالات التكرار كثيرة، وتتشابه فيه مقاطع بأكملها، والكتاب مع ذلك يـــسهل حفظـــه كلمة بكلمة. والكتب الأخرى التى يساعد المنطق والترتيب فيها على ســـهولة الحفظ لم يحدث قط أن حفظت بهذه الطريقة. وهنا نجد صـــفة مـــن صـــفات تشكيل القرآن تجعله شبيها بالرحلات الطويلة فى الصحراء علـــى مـــسارات قليلة التنوع. وليس بوسعنا أن نتلافى الإحـــساس بـــنفس الـــصحراء بكـــل مظاهرها عندما نستمع إلى القرآن. وقد أحس العرب بها إحساسا قويا، ورأوا فيها تحقيقا كاملا لكل ما كان فى وسعهم، ولكل ما كان الوسط الذي يعيـــشون فيه قادرا على إلهامه. وكان القرآن يحيط بروحهم وفنهم وحيـــاتهم بأســـرها بحيث لم يعد العرب بحاجة إلى صنع عمل باهر آخر. كان القرآن يمثل غاية مسعاهم فى الحياة، فأصبحوا بناء على ذلك وكأنهم انتهوا ونـــضبوا بـــسرعة بعد ظهور القرآن.

وهذه الملاحظات القليلة قد توضح بعض الـــشيء هـــذا اللغـــز الـــذى يعرضه تاريخ الأدب بشأن سيطرة القرآن على العرب. فثمة نظرية أعتقـــد أنها جديدة، نظرية تشكيل الكلمات التى هى من صنع بشرى تمامـــا. فكيـــف يمكن لكلمة بفضل ما تعنيه، بفضل شكلها، وموسيقاها، وعلاقتها بغيرها مـــن الكلمات، وباختصار بفضل كل شخصيتها ككائن حى - كيـــف يمكـــن لهـــذه الكلمة أن تصبح تعبيرا عن نفس، أن تصبح لوحة صوفية وغير واعية بمـــا

هو جوهرى فى مشهد طبيعى أو فى شعب؟ فى ذلك تكمن معجــزة القــرآن، وأنا لا أعرف أى أمثلة أخرى سوى شذرات متفرقة ليس لها شمول القــرآن. والتشكيل لدى شعوب أخرى لا يوجد بالضرورة فى أدبهم. فالتــشكيل لــدى اليهود مثلا يوجد فيما أعتقد فى سفر الخروج. ولكننا نجد السمة المميزة لهذا الشعب فى فعل الخروج ولا يوجد فى شكل تأليفه. وسيقول الملحــدون لعــل الخروج لم يحدث قط. ومن الممكن الرد عليهم بأن العمل الأدبى يعيشه شعب وأنه جزء من وجودهم وأنه صادق صدق الوقائع التاريخية ذاتها. بــل انــه أكثر صدقا لأن هناك وسائل عدة لرواية الواقعة التاريخية الواحدة فى حــين أن العمل الأدبى يوجد هنا ماثلا أمام أعيننا مماثلا لنفسه دائما. ولا يقلل مــن قيمة القرآن أنه لا يمثل إلا تشكيل الصحراء. فهناك لوحات لــشحاذين أروع من صورة للصلب أو صورة للسيدة العذراء.

وهذا التشكيل الرائع يجعل من القرآن ظاهرة فريــدة. ومــن الــسخف الحكم عليه بمعايير القيم الأدبية العادية. فالقرآن هــو الــسيمفونية الكبــرى للصحراء، وهو اللوحة الصوفية لهذه الشعوب التى أحست بــالقوة الــسحرية للكتاب المقدس حتى قبل أن تفهمه.

وأنا أبحث عن كلمة لوصف هذا التأثير. وليس هناك إلا كلمة واحــدة. القرآن لا يمكن أن يكون إلا وحيا **إلهيا**(١) حقا.

---

(١) الكلمة مؤكدة فى الأصل. (م)

الملحق الأول

رسالة من وزير تركى إلى طه حسين:

المفوضية التركية

القاهرة   القاهرة ، الخامس من مايو ١٩٤٥

يا صاحب السعادة،

نشرت جريدة *La Bourse Egyptienne* فى ٣ مايو مقتطفات من تصريحات أدليتم بها إلى مراسل لمجلة صدرت مؤخرا. وهى تتسم كما هى العادة دائما بسمو الفكر وعمق النظر اللذين يميزان جميع تصريحاتكم. ولن أخاطر بالإعراب عن وجهة نظرى في موضوع يتجاوز كفاءتي، ولكنى أود أن تتكرم سعادتكم بتوضيح لغز يشغل فكرى.

تقولون سعادتكم "إن مصر بقيت مستقلة، وإنها أقامت مع العالم الخارجى صلات مزدهرة إلى أن أنهى الأتراك العثمانيون استقلالها فحصروها فى نطاق العزلة القاتلة." وهو ما يعنى يقينا باللغة العادية أن مصر ألقى بها فى عزلة أفضت إلى انحطاط روحى وخلقى بسبب الغزو التركى الذى قضى على كل مظاهر الفكر وعلى مسيرة التقدم المادى.

أرجو أن تكونوا على ثقة من أنه ليس فى نواياى على الإطلاق أن أناقش هذا القول الذى أصبح شعارا منتشرا في جميع البلدان التى كونت فيما مضى جماع الإمبراطورية العثمانية. فتركيا هى التى يقول المفكرون الشرقيون المتشبعون بالروح المشرقية عرقلت بإدارتها السيئة وعيوبها

الأخرى خطى الحضارة في هذه الدول، وحالت دون ازدهار الفكر، مصدر كل نشاط بشرى. وأنتم سعادتكم تسمعون هذا الترجيع في اليونان كما تسمعونه في بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا، بل وفي المجر حيث لا يجد أساتذة الفكر أى عذر آخر يفسرون به الضعف الظاهر في المجال الروحي والأخلاقى الذى يلاحظونه في بلد كل منهم.

والعزلة القاتلة فى حالة البلدان الإسلامية التى تتحدثون عنها سعادتكم ينبغى ألا تعزى إلى القرن السادس عشر. فقد بلغت هذه العزلة أوجها بداية من القرن الثالث عشر عقب الحروب الصليبية، وغزوات المغول، والاضطرابات الداخلية التى دمرت الشرق الأوسط. وقد وقع العالم العربى فى وهدة العزلة القاتلة إذن بسبب عوامل أخرى لا بسبب الأتراك العثمانيين كما يحلو لسعادتكم أن تقولوا. ومن المؤكد أنه ليس بوسع أحد أن يجيل ما قدمه العرب والشعوب المعربة من مساهمة رائعة في حضارة تلك الفترة البطولية. ولكن من شأن التدهور أن يعقب الذروة – وإلا لما كان ذلك عملية عادية – وقد بدأ هذا الانحطاط يتجلى لا فى المجال الحربى فقط ولكن فى مجال الفنون والفكر أيضا. ولذلك فبينما أدى تجدد آداب القدماء ومعارفهم المعمقة فى الغرب فى القرن الخامس عشر إلى حركة النهضة، فإن الشرق الأوسط كان يوجد فى تلك الفترة فى غمرة الفوضى الكاملة من الناحية الحربية والروحية. وكانت العزلة القاتلة كاملة قبل أن تبسط تركيا غزوها على البلدان العربية. وحتى إذا سلمنا[على سبيل الجدل] بأن تركيا قمعت فى مصر كل مظاهر الفكر، فكيف يمكن عندئذ تفسير التدهور الفكرى الذى أصاب بلدانا إسلامية أخرى مثل إيران، وأفغانستان، وجزر الهند الشرقية

المسلمة، وتونس، والجزائر، وهى بلدان لم تطأ أرضها قط قـدما جنـدى أو موظف تركى [؟] وإذا كان الأتراك اضطهدوا التعليم والتربيـة، فلمـاذا لـم يزدهر الفن والعلم والمعرفة في بقية العالم الإسلامى [؟] وماذا عسى أن يقال عن المغرب الذى لم لم يكتشف الفرنسيون فيه فى سنة ١٩١٢ سوى كائنـات بدائية جاهلة وشبه متوحشة، هذه الكائنات التى حكم أجدادها القـدماء شـبه الجزيرة الآيبيرية على نحو باهر لعدة قرون[؟] فلم تكن الإدارة التركيـة يـا صاحب السعادة هي التى أوقعت هذه البلاد فى حالة البؤس والجهل والخراب التى نعرفها وأعتقد أن السير البطيء الذى نلاحظه فى الشرق وفـي العـالم الإسلامى بصفة عامة يجب أن يفسر بظاهرة ذات طـابع عـام. وإن عقـلا مرموقا مثل عقلكم لقادر على اكتشاف العلة والتعبير عنها بكل صراحة.

ولقد سمحت لنفسى بأن أوجه إليكم هذه السطور لكى أؤكد لكـم أولا احترامى العميق الذى أشعر به نحو شخصكم ولأخبر سعادتكم ثانيا أننـى أود أن أرى فى حججكم النقدية ورسائلكم الفلسفية حقائق ترتفع عـن المـستوى العادى وتظل خالية من كل تعصب بال عتيق.

وأرجو يا صاحب السعادة أن تتقبلوا فائق احترامى وخالص مودتى.

التوقيع

[الإسم غير واضح]

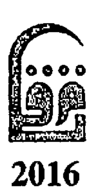
الملحق الثانى

صور لصفحات من المخطوطات طه حسين الفرنسية :

- الصفحة الأولى من رد طه حسين على وزير تركى .
- الصفحة الأولى من مقالة طه حسين عن المعتزلة وليبنتز.
- الصفحة الأولى من مقالة طه حسين عن مشكلة الشرق.
- الصفحة الأولى من مقالة طه حسين عن قوة القرآن مشروحة لغير المسلمين.
- الصفحة الأولى من مقالة طه حسين فى جامعة أثينا.
- الصفحة الأولى من تصدير طه حسين لكتاب *الشفاء*.

LES MANUSCRITS FRANÇAIS DE TAHA HUSSEIN
(Edition bilingue)

Texte établi et traduit en arabe par Abdelrashid Mahmoudi



2016

TABLE DES MATIIERES

Préface

L'occasion m'a été donnée de découvrir un certain nombre de textes que Taha Hussein, le Doyen de la littérature arabe, a écrits en français et publiés dans des publications françaises et égyptiennes. Textes oubliés de tous, Je les ai traduits en arabe et regroupés dans un seul volume dont la première édition a paru à Beyrouth (1990) et la troisième édition au Caire (2008).

Récemment, j'ai eu connaissance d'autres textes de Taha Hussein, écrits en français, qui diffèrent sensiblement de ceux déjà publiés, du fait qu'ils ne sont que des manuscrits dictés par leur auteur (qui était aveugle), et dactylographiés ou écrits à la main. Ils sont restés à l'abandon parmi d'autres papiers de Taha Hussein, et n'ont pas été publiés pour une raison qu'on ignore. D'où la nécessite, cette fois-ci, d'une édition bilingue regroupant les textes originaux en français et leurs traductions arabes.

Ces textes sont divers et variés : certains d'entre eux ont été écrits dans un but ponctuel; d'autres sous la forme de « rapport » ou en guise d' « avant-propos » d'un livre, ou comme une « recherche scientifique » concernant, par exemple, la comparaison faite par Taha Hussein entre les *Motazilites* et Leibniz, ou l'étude approfondie parue sous le titre « Puissance mystique du Coran expliquée aux non-musulmans ».

Toutefois, ces écrits, dans leur ensemble, y compris ceux écrits dans un but ponctuel ne sont pas sans importance et pertinence, car ils mettent en lumière d'autres opinions et points de vue de leur auteur, et ouvrent des perspectives nouvelles pour l'innovation. C'est ainsi que les textes écrits dans un but ponctuel, comme « Le problème de l'Orient » ou les deux discours prononcés à l'Université d'Athènes et à l'Institut d'études islamiques à Madrid respectivement, ne sont pas sans rapport, d'une manière ou d'une autre, avec un thème ayant une importance critique dans la pensée de Taha Hussein. Ce thème continue de susciter l'intérêt à l'heure actuelle, à savoir la culture méditerranéenne que Taha Hussein, s'inspirant de Paul Valéry, considère qu'elle allie l'Egypte (et le Proche Orient en général) à

l'Europe, et qu'elle constitue une seule culture ayant pour fondements et la pensée grecque ancienne et la loi romaine et les religions monothéistes nées au Proche Orient. Mais, il va sans dire que cette vision entre en concurrence avec une autre vision, à savoir celle concernant le choc des civilisations.

Je me suis permis d'introduire, en établissant les textes, quelques modifications mineures concernant, par exemple, les fautes de frappe et certains noms propres. J'ai aussi ajouté quelques notes portant la lettre « M » qui désigne le nom de l'éditeur, afin de les distinguer de celles rédigées par l'auteur.

Je tiens à remercier les responsables du journal égyptien « Al-Ahram », qui ont accepté de publier ma traduction de ces textes et les commentaires que j'en ai fait, et ce sous une forme qui convient parfaitement à l'importance capitale de Taha Hussein.

Je profite de cette occasion pour remercier chaleureusement les héritiers de Taha Hussein, ainsi que son gendre feu Dr Mohamed Hassan El-Zayyat, qui m'ont permis, en tant que détenteurs des droits d'auteur, d'avoir accès aux papiers laissés par Taha Hussein, et de traduire en arabe et publier ces manuscrits. Ce sont Madame Amina Okada-Taha Hussein, Madame Laila Awn, Madame Sawsan El-Zayyat, et M. Hasan al-Zayyat.

Abdelrashid Mahmoudi

Le Caire, novembre 2015

Lettre adressée à unministre turc[1]

Monsieur le Ministre,

J'ai reçu il y a quelques jours la lettre que Votre Excellence a bien voulu m'écrire à propos d'une déclaration que j'avais faite à une nouvelle revue et que *la Bourse* a traduite.

Permettez-moi tout d'abord de remercier très sincèrement Votre Excellence des bonnes paroles qu'elle m'adresse et de la bonne opinion qu'elle a de moi.

Que Votre Excellence se rassure : en faisant ma déclaration je n'ai voulu dénigrer ni favoriser personne. Seul le souci de la vérité historique m'a fait dire ce que j'ai dit.

Je n'ai pas la compétence suffisante pour discuter de la situation des pays que Votre Excellence mentionne en Asie, en Afrique et en Europe mais je sais que pour l'Égypte j'ai dit la vérité vraie. Avant la conquête ottomane notre pays avait une indépendance complète qui lui permettait d'établir des relations diplomatiques, économiques et même scientifiques avec l'Europe méditerranéenne. La civilisation de notre pays était florissante, Le Caire prenait dans le monde musulman le rôle d'Alexandrie dans le monde hellénistique, notre université d'El Azhar et les écoles que les sultans mamelouks avaient un peu partout, jouaient à peu près le rôle du Musée des Ptolémées. Chose curieuse, une renaissance scientifique, littéraire et artistique en Égypte pendant

(1) Ce texte n'est qu'un projet écrit à la main et corrigé à plusieurs points, en réponse à une lettre adressée par un ministre turc à Taha Hussein. (Voir le texte de cette dernière lettre dans l'appendice I). Le manuscrit ne porte ni titre, ni date, mais on peut supposer qu'il a été rédigé à une date assez proche de la date de la lettre susmentionnée, c'est-à-dire le 5 mai 1945. À noter aussi que chaque page du manuscrit (il y'en quatre) porte l'empreinte d'un cachet suggérant, peut être, le symbole d'un abat-jour (ou d'un arbre ?). Il est fort probable que le cachet appartenait à Taha Hussein. (M)

le treizième, le quatorzième et le quinzième siècle coïncidaient avec la première renaissance européenne. Il est infiniment probable que sans la conquête ottomane l'Égypte aurait participé à la deuxième renaissance européenne du temps moderne.

Si Votre Excellence me demande des preuves, je la prierai de voir les monuments du Caire de cette époque et de considérer que c'est justement alors que l'Égypte donna au monde musulman ces admirables recueils encyclopédiques qui, en réunissant la somme de savoir humain dans telle ou telle branche de la vie intellectuelle, purent ainsi conserver l'héritage de la civilisation arabe.

Il me suffit de nommer Kalkachandi, Nouwairi, Omari et Makrizi pour pouvoir prouver que l'Égypte des sultans mamelouks conserva et transmit aux générations musulmanes l'essentiel de ce que l'esprit musulman produisit pendant sept ou huit siècles de l'histoire.

Du reste il y a un phénomène constant dans l'histoire de l'Égypte, c'est l'impossibilité pour elle de produire quelque chose de substantiel dans la vie de l'esprit quand elle ne jouit pas d'une indépendance plus ou moins effective.

Quand elle subit la domination étrangère, elle s'épuise dans sa lutte pour la liberté. Lutte qui l'absorbe presque entièrement.

Sous la domination persane, comme sous la domination romaine, elle n'a presque rien donné d'intéressant.Par contre l'époque des Ptolémées fut une époque d'une fertilité étonnante. C'est que sous les Ptolémées, l'Égypte était libre, elle avait ses rois, sa capitale, ses armées de terre et de mer. Même phénomène à l'époque musulmane ; sous le califat de Médine, de Damas et de Bagdad, la vie intellectuelle égyptienne fut presque médiocre mais dès qu'elle recouvra un peu d'indépendance avec les Toulounides et les Ikhchidides elle commença à devenir un facteur essentiel dans la vie de l'esprit musulman. Avec les Fatimides, les Ayyoubides et les Mamelouks, l'Égypte recouvre son indépendance complète et étend sa domination en dehors de ses frontières et immédiatement Le Caire devient une rivale très dangereuse pour Bagdad à l'est et Cordoue à l'ouest. Et lorsque Bagdad tombe sous les coups des Mongols et que Cordoue tombe sous les coups des Chrétiens d'Espagne, Le Caire reste seule la vraie capitale intellectuelle du monde musulman.

Mais les Turcs ottomans arrivent et l'Égypte est réduite à l'état de province de l'Empire turc comme elle était province de l'Empire byzantin et de l'Empire romain. Elle retombe dans la médiocrité.

Avec le 19è siècle l'Égypte reprend petit à petit son indépendance et reprend en même temps petit à petit une vie spirituelle active.

Vous voyez, Excellence, qu'en faisant ma déclaration, je ne faisais que constater un phénomène constant dans l'histoire de notre nation, rien de plus.

Du reste, Votre Excellence ne croit-elle pas qu'il est bon de considérer l'histoire avec un esprit aussi objectif que possible ?

Cela satisfait l'intelligence et le cœur à la fois, donne à l'une le plaisir de contempler la vérité et purifie l'autre de tant de préjugés qui font aux hommes plus de mal que de bien.

En vous réitérant mes remerciements, je vous prie de croire etc. ... à ma considération respectueuse.

Taha Hussein

LE PROBLEME DE L'ORIENT
PAR
LE DR TAHA HUSSEIN BEY [1]

Les graves problèmes qui se posent à l'attention du monde ne se limitent pas à l'Europe. L'Orient aussi a ses problèmes qui ne sont ni moins graves, ni moins importants pour la coopération internationale.

Car la vie internationale ne se base pas et ne saurait se baser sur l'isolationnisme ou le compartimentage du monde ; elle se base au contraire sur la solidarité des intérêts, l'échange des services et la complexité des buts. De sorte que toute manifestation de trouble ou de faiblesse qui apparaît dans une partie quelconque du vaste monde a ses répercussions plus ou moins profondes sur l'ensemble du monde.

La grave question qui se pose aujourd'hui est celle-ci : les relations qui s'étaient établies dans les temps modernes entre l'Orient et l'Occident étaient basées sur le fait que l'Orient était faible, attardé, et l'Occident fort, intelligent, rusé, habile dans l'art d'exploiter, en mesure de faire tout ce qu'il voulait.

Mais les choses ont beaucoup changé depuis le siècle dernier ; et ce changement a été accéléré par la première guerre mondiale ; si bien qu'aujourd'hui il n'est plus permis de l'ignorer ou de ne pas en tenir compte.

Dans le siècle dernier l'attention de l'Europe était concentrée sur l'Empire Ottoman qui s'étendait sur trois continents. L'Orient était alors une unité qui était représentée par la Sublime Porte. Et les puissances européennes se divisaient selon leur convoitise et leurs intérêts autour de "l'homme malade".

---

(1) Ce manuscrit ne porte aucune date. Mais le cotexte montre clairement que l'auteur l'a dicté au lendemain de la fin de la deuxième guerre mondiale, probablement comme une intervention destinée à la conférence sur le malentendu entre L'Orient et L'Occident, tenue à Venise en 1945. (M)

Mais après la première guerre mondiale il n'y eut plus d'homme malade autour duquel on pouvait se disputer. Il y eut désormais plusieurs unités nationales qui luttaient pour la réalisation de leurs droits et la conquête de leur indépendance. Et la Turquie fut l'une des ces unités et la plus importante. Elle a démenti les prévisions de l'Europe en prouvant qu'elle pouvait perdre son Empire et vivre malgré cela d'une vie forte et prospère, entourée du respect de toutes les puissances.

La Turquie s'est débarrassée de tous les vieux germes de maladie ou de faiblesse et s'est relevée après sa défaite plus vivace que jamais. Elle repoussa l'envahisseur, refusa le traité de Sèvres et obligea l'Occident à signer avec elle le Traité de Lausanne. Ensuite elle prouva à l'Occident qu'après avoir retrouvé ses frontières naturelles et rénover ses institutions, elle continua à être un élément important de l'équilibre international. Nous vîmes alors l'Europe entrer en négociations avec elle au sujet des Détroits puis se disputer son alliance à la veille de la seconde guerre mondiale. Nous vîmes enfin la Turquie adopter entre l'Allemagne et ses ennemis l'attitude que chacun connaît caractérisée par l'énergie, la fermeté et la souplesse.

Cependant l'Occident prévoyait certainement que l'Empire auquel la Turquie avait renoncé serait partagé comme butin de guerre entre les puissances victorieuses.

Mais les événements ont encore démenti ces prévisions et ont montré que les peuples qui composaient cet empire voulaient reconquérir leur indépendance.

Tout le monde sait comment l'Egypte s'est insurgée et a lutté jusqu'à ce qu'elle eût obtenu une partie de ses droits et aujourd'hui encore, elle ne cesse de revendiquer ce qui lui manque ; comment la Syrie, le Liban et l'Irak ont suivi le même chemin ; comment l'Arabie a évolué jusqu'à l'indépendance.

Puis ce fut la seconde guerre mondiale.

L'Europe adopta à l'égard de l'Orient arabe une attitude nouvelle. Elle chercha à se rapprocher de lui, à s'en faire aimer ; et pour cela elle le combla de promesses.

En vérité l'Europe n'a pas réussi à connaître la mentalité des peuples de l'Orient ; elle a cru toujours pouvoir impunément leur faire des promesses et ne pas les tenir ; elle a cru que l'Orient oublie facilement. Alors que les révolutions de cet Orient arabe entre les deux guerres auraient dû lui montrer que ces peuples réclament toujours la réalisation des promesses qu'on leur fait et ne faiblissent jamais dans leur action.

Or l'Europe continue encore en Orient la politique des promesses que l'on fait aujourd'hui pour les oublier demain. L'Orient doit lui rappeler que cette politique est périmée et que les relations entre l'Orient et l'Occident doivent être établies désormais sur des bases sérieuses.

Les événements de Syrie et du Liban sont la preuve que l'Orient arabe est décidé à faire que son indépendance ne soit pas un mot vide de sens et que ses droits ne soient pas un sujet d'intrigues et de manœuvres.

D'autre part les Européens considéraient la Ligue des Etats arabes avec beaucoup de pitié et de condescendance, voire avec un certain mépris.

Mais les événements ont montré aux Européens raisonnables que les peuples arabes ne plaisantent pas et qu'ils n'ont pas créé la Ligue pour s'y mirer comme dans un miroir, mais bien en vue de reconquérir leurs droits et de réaliser leurs aspirations.

Il est vrai dans une certaine mesure que les gouvernements des pays arabes ne portent pas à la Ligue l'intérêt et la considération que lui portent les peuples, mais il ne faut pas oublier que les gouvernements changent et les peuples restent.

Or ce qui est certain c'est que tous les peuples arabes sont profondément convaincus ; 1) de leur droit à l'indépendance, 2) de la nécessité de leur coopération et qu'ils ne seront tranquilles sur leur sort que lorsqu'ils auront amené l'Europe de gré ou de force, à reconnaître leur droit à la dignité, à la liberté et à l'indépendance.

Il ne fait pas de doute que l'Europe va continuer à se leurrer elle-même et à leurrer les peuples de l'Orient pendant un temps plus ou moins long. Mais il ne fait pas de doute non plus que l'Europe, qu'elle le veuille ou non, finira par se trouver face à face avec la réalité et par se convaincre que la ruse ne servira à rien.

Il est clair que l'Europe a des visées et des intérêts dans l'Orient arabe. L'Orient arabe est en effet sur la route de différents empires coloniaux ; de plus il contient des trésors que l'Europe connaît parfaitement et dont elle ne peut se passer ; enfin l'Europe exerçait sur cet Orient une domination à laquelle elle ne renoncera pas facilement.

Mais l'Europe saura parfaitement - si elle ne le sait pas déjà - que tous ces intérêts peuvent très bien lui être assurés sur la base de l'amitié et de la coopération et que tous ces intérêts seront singulièrement en danger si elle cherche à les garantir par la force et la domination.

Enfin l'Europe saura - si elle ne le sait déjà - que l'on peut perdre certaines choses et qu'on doit se consoler de leur perte quand la nature des choses l'exige, et que la domination est une de ces choses-là, que l'Europe a dominé pendant un temps l'Orient et que sa domination est en train de disparaître et qu'elle disparaîtra complètement.

Il est préférable pour l'Europe de s'adapter au monde nouveau et d'asseoir ses relations avec l'Orient sur la coopération loyale qui s'appuie sur la sincérité et la franchise non sur la ruse et la trahison.

C'est cette coopération qui garantira la sécurité des communications et la meilleure exploitation des trésors pour le plus grand profit de l'orient et de l'Occident ensemble.

Les problèmes de l'Orient ne se limitent pas à l'une quelconque des grandes puissances et tous les Etats arabes dans leur ensemble.

Il existe des problèmes entre la Russie et la Turquie, d'autres entre la Russie et l'Iran. La Grande-Bretagne et l'Amérique ont leur opinion particulière sur ces problèmes.

L'essentiel n'est pas que l'une ou l'autre fasse prévaloir son opinion mais que les droits de la Turquie et de l'Iran soient respectés par toutes ces puissances pour le plus grand profit du monde dans son ensemble.

On peut en dire autant des relations entre les peuples arabes et les grandes puissances.

La Grande-Bretagne a des problèmes à résoudre avec l'Egypte et l'Irak : ici une occupation militaire qui doit prendre fin, là un mandat ancien dont les dernières traces doivent disparaître.

La France a aussi un problème à résoudre avec la Syrie et le Liban. Et elle doit lui donner une solution définitive et sérieuse sans arrière-pensée ni restriction mentale.

L'Amérique de son côté a des visées et des intérêts économiques dans tous ces pays. Elle doit réaliser ces visées et ces intérêts sur la base de l'amitié et de l'équilibre des droits.

La Russie porte aussi ses regards de temps en temps sur l'Orient arabe ; ces regards doivent être purs, à l'abri de toute suspicion.

Toutes les grandes puissances doivent se convaincre qu'elles commettraient une grosse erreur psychologique si elles croyaient pouvoir reprendre leurs compétitions autour de l'Orient arabe. Le temps de ces compétitions est définitivement révolu.

Enfin il existe deux graves questions dont l'une sollicite aujourd'hui l'attention du monde entier et l'autre s'impose à son attention de temps à autre.

Ces deux questions doivent recevoir une solution définitive qui ramène la confiance entre l'Orient et l'Occident.

La première est la question de la Palestine. Notons que le problème palestinien a été créé de toutes pièces par l'Occident en conséquence de cette politique de promesses inconsidérées que la Grande-Bretagne a pratiqué durant l'autre guerre. Pendant des siècles le monde a vécu en paix avec une Palestine arabe.

C'est la dernière guerre qui a donné naissance à l'idée diabolique qui est en train de détériorer les relations entre l'Orient et l'Occident.

Il faudrait que ceux qui ont créé artificiellement ce problème lui donne une solution et débarrasse le monde de ce cauchemar.

La Palestine a été de tout temps arabe, et elle l'est encore. Elle doit le demeurer. Elle doit enfin se gouverner comme elle le veut et non comme le désire telle ou telle puissance d'Europe ou d'Amérique....

La deuxième question est celle de l'Afrique du Nord.

L'Orient arabe ne finit pas à la frontière Egyptienne. Il finit sur l'Océan Atlantique. C'est ainsi que l'Europe l'a considéré au Moyen-Age et dans les Temps Modernes.

C'est ainsi que nous l'avons considéré depuis que les arabes se sont établis en Afrique du Nord à la fin du 1er siècle de l'Hégire.

Et c'est ainsi que nous le considérons aujourd'hui.

Cette partie intégrante de l'Orient arabe est soumise aujourd'hui - comme nous le fûmes nous-mêmes - à la domination étrangère. Elle est agitée par les mêmes courants que l'on voit chez nous : la vitalité, la conscience de son droit à la dignité et à l'indépendance. Nous partageons avec elle ces sentiments et nous demandons pour elle les mêmes droits que nous réclamons pour nous-mêmes.

Nous estimons que les problèmes de l'Orient ne seront pas résolus tant que celui de l'Afrique du Nord ne l'aura pas été.

Nous estimons que la Ligue arabe ne sera pas complète tant que cette partie du monde arabe n'y aura pas sa place.

Le mieux pour l'Europe c'est de considérer tous ces problèmes, sous le même angle que nous et de leur donner les solutions que nous proposons sur la base de la bonne volonté, de la sincérité et de la coopération.

Là encore l'Europe peut se leurrer et essayer de leurrer les autres. Elle sera la première à en pâtir. Le mieux pour elle est de prévoir les événements et d'asseoir ses relations avec l'Orient sur l'amitié et la fraternité.

Si l'Europe s'obstine à ignorer cette vérité nous devons faire preuve de fermeté et nous convaincre que nos problèmes si différents et si disparates qu'ils puissent paraître, constituent au fond un seul et même problème.

Le monde nouveau ne pourra être édifié que si le versant arabe de la Méditerranée jouit de la même indépendance aujourd'hui reconnue aux seuls peuples vivant sur son versant européen.

Faute de cette égalité il n'y aura pas de relations stables entre l'Orient et l'Occident surtout maintenant qu'il est apparu clairement que l'ère des dominations sur ces pays arabes est close depuis bien longtemps.

Taha Hussein

Discours de Taha Husein à l'université d'Athènes à l'occasion de la remise de son doctorat *honoris causa*, en 1951.

Monsieur le Recteur, Monsieur le Président, Monsieur le Ministre de l'Education Nationale, Excellence, Mesdames, Messieurs,

Il me faudrait une éloquence toute athénienne, celle de votre grand Isocrate par exemple, pour dire le sentiment de reconnaissance et de gratitude qui remplit mon cœur depuis que je suis arrivé en Grèce.

Sentiment de gratitude et de reconnaissance à Leurs Majestés les Souverains de Grèce, pour la haute sollicitude dont ma femme et moi-même avons été l'objet, et à dire ma gratitude à Sa Majesté le Roi des Hellènes pour la distinction personnelle dont j'ai été l'objet.

Je me dois de remercier le Gouvernement Hellénique pour toutes les marques de courtoisie et de bienveillance qu'il nous a accordées à ma femme et moi.

Quant à l'université d'Athènes et l'honneur qu'elle vient de me conférer en me nommant Docteur *Honoris* Causa, elle doit savoir que la manière de se remercier entre savants c'est d'offrir une collaboration fertile et utile qui fait du bien à l'humanité.

C'est vous dire l'émotion qui m'étreint, que je réalise la chose irréalisable, lorsque je parle là où les maîtres de l'humanité ont parlé il y a plus de vingt siècles. Parler là où ont parlé Socrate, Platon, Aristote, Démosthène, Isocrate est une chose qu'on rêve.

Il n'y a pas de pays qui peuvent dire ce que la Grèce et l'Égypte peuvent dire de leur amitié millénaire. Nous nous connaissons, nous collaborons, non pas depuis des siècles, mas depuis des dizaines de siècles. Pendant ces milliers d'années, les deux amies ont subi pas mal de revers, acquis pas mal de gloire. Nous avons collaboré ensemble. Nous avons lutté des fois l'un contre l'autre. Nous nous sommes

connus avant d'autres pays. Notre collaboration n'a pas eu de bornes. Pendant dix siècles, votre langue fut la langue officielle de l'Égypte depuis Alexandre, jusqu'à l'arrivée de l'Islam aux bords du Nil ; votre culture fut la nourriture spirituelle de l'Égypte depuis le 4ème siècle avant l'ère chrétienne jusqu'aujourd'hui et le sera pour toujours. L'Égypte peut s'enorgueillir d'avoir gardé pour l'humanité les trésors des Grands Maîtres, pour les rendre dans les temps Modernes non pas comme sources de délices pour les raffinés, mais comme principes essentiels de la vie.

L'Égypte et la Grèce furent séparées. L'Égypte devint musulmane, la Grèce resta chrétienne. La lutte fut dure, acharnée mais féconde pour l'histoire, les lettres, l'art, le réveil de l'humanité. Arabes et Grecs se faisaient la guerre. Mais pendant les périodes de calme, les Arabes venaient à Byzance chercher les livres des Grands Maîtres pour les traduire, les commenter, les diffuser, pour permettre à ces amis ennemis, si on peut employer ce terme contradictoire de se connaître et de se comprendre, et par cette connaissance et par cette compréhension, faire l'unité spirituelle du monde. Grâce à cette lutte entre le Monde Arabe et le Monde Byzantin, nous avons eu de grands poètes qui l'ont célébrée, et qui ont exalté la victoire de leurs princes... Sans cette lutte nous n'aurions pas eu Abu Tammam et sans elle nous n'aurions pas eu Al-Moutanabbi. Sans cette culture, fruit de nos relations de guerre et de paix, le Monde Arabe n'aurait pas eu Abul-Ala Al-Maari, grand poète, philosophe épicurien.

Il y a mieux ; nous étions deux peuples luttant terriblement en Asie Mineure ; mais ce sont les Arabes Musulmans qui ont hellénisé l'Orient jusqu'aux Indes. Le Monde Musulman tout en faisant la guerre à l'empire byzantin, apporta la culture Gréco-Arabe en Espagne musulmane et c'est de là que les idées et les doctrines de vos philosophes ont pénétré jusqu'au fond du monde occidental, alors que ce monde avait oublié la culture classique.

L'unité du monde, Alexandre essaya de la faire ; il n'y a réussi qu'à peine. Rome à son tour essaya de la faire, elle n'a pas eu plus de chances qu'Alexandre. L'Islam y est arrivé parce qu'il a arabisé la culture grecque et a pu ainsi la mettre directement à la portée de tous ceux qui comprenaient l'Arabe. Depuis les Indes jusqu'à l'Europe, tout ce monde pensait selon la philosophie d'Aristote. C'est la façon de penser que les Grecs ont donné au monde musulman pendant les Grands Siècles de traduction.

Il y a dans le monde, très peu de pays qui ont pu garder une personnalité impossible à détruire, une personnalité capable de vivre malgré toutes les difficultés et les catastrophes. Ces pays ont donné au monde l'exemple de peuples qui peuvent supporter les souffrances et les vicissitudes et garder en même temps leur personnalité intacte. La Grèce et l'Égypte sont de ces pays. Ils ont subi des invasions, souffert des tyrannies mais leur personnalité ne fut jamais atteinte ; ils n'ont jamais renoncé à l'espoir ni à la confiance dans leurs destinées. Je sais, nous savons tous que nos deux pays furent forcés à un moment donné à se tenir tranquilles ; à deux dates très rapprochées, au milieu du 15ème siècle pour la Grèce, au commencement du 16ème siècle pour l'Égypte, deux lumières furent baissées mais non éteintes. Ces deux grandes lumières restèrent en veilleuse pendant trois siècles et même plus.

Au 19ème siècle, le Grand Mohammed Ali vient en Égypte et rend à la lumière égyptienne musulmane toute sa force. C'est le Monde Arabe jusqu'en Arabie qui en renaît au 19ème siècle, la Grèce se soulève et donne à sa lumière la force qui a secoué l'humanité ; et voilà l'Égypte et la Grèce qui se reconnaissent, se retrouvent, se serrent la main. Nous avons suivi le même chemin vers l'accomplissement de nos destinées en faisant tout ce que nous pouvions pour rattraper le temps perdu. Vous avez fait des merveilles, vous avez étonné le monde depuis 1821 et l'Égypte est arrivée à faire comprendre au monde qu'il ne peut y avoir de paix vraie sans elle ; vous et nous, sans exagération et sans vanité, nous pouvons défier le monde de faire la paix sans nous, la Méditerranée nous appartient et sans une Méditerranée libre

et tranquille la paix n'est qu'une illusion. Nous avons conscience de notre force et donc nous avons conscience de nos faiblesses. On n'est pas fort quand on ne connaît pas ce qui manque pour le réparer. Nous voulons que notre présent soit digne du passé et que l'avenir de nos enfants soit meilleur que notre présent. Nous avons à travers le 19ème et le 20ème siècles, nous avons marché la main dans la main. Vous l'avez vu, quand la catastrophe s'abattit sur la Grèce, les Égyptiens ont souffert de votre souffrance, ont pris part à votre désolation et à vos inquiétudes.

J'espère que les Grecs l'ont vu, ont senti que les Egyptiens se penchaient sur eux, souffraient avec eux et gardaient avec eux l'espoir que cette flamme n'allait pas s'éteindre.

Lorsque la Grèce fut envahie, lorsque les soldats grecs ont forcé une grande puissance à savoir qu'il faut réfléchir avant de se lancer à l'attaque même contre un peuple moins fort, pas un Égyptien n'a passé un moment et je vous l'affirme, sans voir avec l'admiration, la fierté du peuple grec qui a renouvelé sa grandeur d'autrefois. Il n'y a pas que la brutalité pour triompher, il y a plutôt quelque chose de mieux, il y a la force de la foi dans la liberté et la démocratie. Vous vous êtes donné toujours la liberté comme but, la liberté non seulement pour vous mais pour le monde.

Pendant tout le Moyen Age, Grecs et Arabes se comprenaient sans intermédiaires, par les traductions, les lectures, les visites. Aujourd'hui cela continue, mais pas comme dans le passé. Vous ne connaissez plus l'arabe, nous ne connaissons pas votre grec moderne comme naguère l'on comprenait le grec ancien à Damas, Bagdad et Alexandrie. Vous et nous avons manqué vis-à-vis l'un de l'autre. On devait faire quelque chose, on ne l'a pas fait. On devait arriver à se comprendre directement et sans intermédiaires. Il ne faut pas que vous recourriez au français ou à l'anglais pour comprendre notre littérature contemporaine et nos activités culturelles. Il ne faut pas que nous en fassions autant pour connaître votre Palamas, votre Cavafis, votre Skirianos. Il faut que nous arrivions à vous lire dans le texte et que vous arriviez à lire nos auteurs dans leur langue. Se connaître par

intermédiaires, par le truchement d'une langue étrangère ne devrait pas être permis à des amis comme vous et nous. Voyez, vous vous êtes adressés à moi en Français et je vous parle maintenant en Français. Je sais bien que la langue française n'est pas une langue étrangère pour les gens civilisés, mais tout de même, elle n'est pas l'Arabe, elle n'est pas le Grec. J'aurais voulu vous comprendre quand vous parlez grec et m'adresser à vous en Arabe et c'est pour cela, qu'inspiré par notre grand philhellène S.M. le Roi Farouk Ier, le gouvernement égyptien m'a chargé de vous annoncer qu'il a décidé de créer à l'Université d'Athènes la chaire Farouk Ier de langue et de littérature arabes.

A partir de l'année universitaire prochaine, vous avez, si vous le voulez bien, un professeur égyptien qui enseignera à votre jeunesse, notre langue et notre littérature. J'attends la création de la chaire de langue et de littérature grecques modernes à notre université d'Alexandrie et j'espère aussi qu'une génération viendra où l'on n'aura pas besoin de langue étrangère pour parler entre Grecs et Égyptiens.

Messieurs, je considère mon séjour à Athènes, en Grèce et cette cérémonie si émouvante que vous avez bien voulu me consacrer à la fois comme une récompense de tout ce que j'ai fait durant ma vie et comme un encouragement à faire tout ce que je pourrais faire dans le temps qui me reste à vivre. Je ne pourrais pas mieux vous remercier qu'en vous reconnaissant cette dette.

RESUME DU DISCOURS QUE PRONONCERA SON EXCELLENCE LE MINISTRE DE L'INSTRUCTION PUBLIQUE DU ROYAUME D'ÉGYPTE, À L'OCCASION DE L'INAUGURATION DE L'INSTITUT FAROUK 1er DE MADRID.

Au nom du Gouvernement Egyptien, j'apporte en ce jour le salut de l'Égypte à l'Espagne et je la remercie de la courtoisie et de la compréhension dont elle a fait preuve à notre endroit, et grâce auxquelles il nous a été possible de créer l'Institut Farouk Premier pour les Études Islamiques à Madrid.

J'interviens maintenant sur un mode plus personnel pour dire combien cette création me tenait à cœur. C'est, en effet, un projet, un rêve que je caressais depuis exactement deux ans, c'est-à-dire depuis ma première visite en Espagne. C'était au mois d'octobre 1948. Il m'avait suffi alors de voir l'Escurial et sa prestigieuse Bibliothèque, Grenade, Séville et Cordoue, ces joyaux de l'Andalousie, et dont les noms pour une oreille arabe sont si évocateurs, pour me convaincre de la nécessité de créer en Espagne un Institut Égyptien qui permettrait aux jeunes chercheurs de mon pays d'approcher les trésors de la civilisation arabo-espagnole et de les voir, pour ainsi dire, vivants. Jusqu'à présent, en effet, les Orientaux, les Égyptiens plus particulièrement, ne connaissaient cette civilisation si remarquable que d'une manière livresque. Grâce à la création de notre Institut, ils vont en avoir une expérience directe. Aujourd'hui ce rêve est devenu une réalité, grâce à sa Majesté le Roi Farouk 1er qui, il y a deux ans déjà, a bien voulu s'intéresser à ce projet et lui a constamment,depuis, accordé sa haute bienveillance.

Je ne crois pas à la fatalité de l'Histoire. Je pense au contraire, que jusqu'à un certain point, l'homme est maître de sa vie et commande à son destin ; cependant il est une fatalité que nul ne saurait contester : celle qui veut qu'une fois l'Histoire faite, l'homme ne puisse pas la

défaire. Or, l'histoire a voulu qu'Espagnols et Arabes aient ensemble créé, au cours de plusieurs siècles, une admirable civilisation. Sans doute entre eux l'harmonie n'a-t-elle pas toujours été de règle : sans doute les sentiments fraternels n'ont-ils pas toujours présidé à ce travail en commun : mais celui-ci a donné des fruits pour le plus grand profit de l'humanité, grâce à quoi de nouvelles perspectives ont été ouvertes dans le domaine de la littérature, non pas seulement en Espagne, mais par exemple, dans la France médiévale. Grâce à quoi également la philosophie a fait un grand pas en avant, et l'héritage de l'Ancienne Grèce a été communiqué à l'Europe, à tout l'Occident du Moyen-Âge, et cela bien avant la Renaissance proprement dite.

Oui, il y a eu, tant chez les Arabes que chez les Espagnols, victoires et défaites ; et l'on pourrait dire que tous ils ont arrosé de leur sang cette civilisation dont je parlais tout-à-l'heure ; voilà pourquoi à vous comme à nous, elle est si chère.

Mais l'Institut que j'ai l'honneur d'inaugurer aujourd'hui a une signification et un but. Ce que nos ancêtres ont fait en faisant appel à la violence, nous entendons, nous, le faire revivre désormais en faisant appel à la douceur de la collaboration scientifique et de l'amitié culturelle. L'Égypte a proposé la création de cet Institut ; l'Espagne a très aimablement accepté. Et je vois là un signe certain que le progrès de l'humanité n'est pas un vain mot : nos relations aujourd'hui s'établissent sur le plan culturel ; dans le passé, elles revêtaient un aspect guerrier.

Quant aux buts que se propose cet Institut, que je suis infiniment heureux d'inaugurer en ce jour, au nom de sa Majesté Farouk 1er d'Égypte, c'est la formation, c'est l'entraînement de jeunes Égyptiens en vue de la recherche scientifique ; ces hommes de mon pays auront à cœur de faire connaître à l'Orient non seulement l'Espagne musulmane, mais aussi bien l'Espagne vivante tout entière, avec ses richesses littéraires et artistiques. Leur mission ne s'arrêtera pas là: ils devront également faire connaître à l'Espagne et aux Espagnols

l'Égypte d'hier et l'Égypte d'aujourd'hui. Ainsi contribueront-ils à resserrer les liens d'amitié entre nos deux peuples, amitié sans laquelle rien d'utile ne peut se faire.

Les destinées de l'Institut Farouk 1er ne s'arrêtent pas là. L'Université Fouad 1er du Caire vient de fonder une chaire de Littérature Andalouse ; l'Université Farouk 1er d'Alexandrie va bientôt suivre son exemple. Il est donc de toute nécessité pour pourvoir à ces chaires dans le plus proche avenir de former des spécialistes : c'est à Madrid qu'ils le seront.

En outre, l'Égypte ne se contentera pas d'envoyer quelques-uns de ses fils travailler ici: elle fera, elle a déjà commencé à le faire, appel aux savants espagnols qui apporteront ainsi chez nous les lumières des grands orientalistes qui nous ont devancé dans l'étude de l'Histoire, de la Littérature, des Arts de l'Espagne musulmane.

Mon éminent collègue et ami, le Professeur Emilio Garcia-Gomez, qui a joué un rôle plus grand que sa modestie ne le pense dans la création de cet Institut, (puisque c'est invité par lui, je ne l'oublie pas, que je suis venu en Espagne il y a deux ans), Emilio Garcia-Gomez va, dès cette année académique, prendre la parole dans nos Universités du Caire et d'Alexandrie. D'autres, je l'espère, le suivront.

Et comme je ne suis pas modéré dans mon ambition pour l'Institut que nous inaugurons aujourd'hui, j'ai l'espoir de pouvoir le doter d'une imprimerie arabe, afin que vous et nous puissions éditer un certain nombre de manuscrits qui se trouvent, soit dans ce pays, soit ailleurs, s'ils concernent l'Espagne arabe.

Enfin, il va de soi que nos jeunes gens vont apprendre votre belle langue, non seulement parce que c'est un magnifique instrument de travail, mais aussi pour pouvoir un jour traduire en arabe les chefs-d'œuvre de votre littérature. Réciproquement, j'espère que dans cet Institut, on donnera des leçons d'arabe pour les jeunes universitaires Espagnols , qui voudront faire de l'orientalisme, puis se rendre en Égypte étudier la langue arabe chez elle ; à ce propos, je remercie

l'Espagne, qui, depuis quelque temps, accorde des bourses à des jeunes égyptiens. Je souhaite que l'Égypte fasse de même.

En conclusion, par cet échange de professeurs, par cet échange d'étudiants, par cet échange d'ouvrages scientifiques, par cette collaboration désintéressée dans la recherche, l'étude et la publication, je pense que nos deux peuples auront conscience qu'ils accomplissent leur devoir vis-à-vis de la civilisation, pour le progrès moral de l'humanité.

RAPPORT DE M. TAHA HUSSEIN

SUR LA TRADUCTION DES CLASSIQUES POUR LE MONDE ARABE

Se rendant compte de l'importance de la traduction comme moyen de réaliser l'unification de l'esprit humain où qu'il se manifeste dans le monde, l'Unesco accepta du Conseil Economique et Social, en Juin 1947, l'invitation due à l'initiative de M. Charles Malek d'envisager un plan pratique de traduction dans toutes les langues des œuvres classiques mondiales.

A cet effet, l'Unesco, en mai 1948, réunit un comité d'experts qui, après avoir étudié cette proposition conclut à l'opportunité et à l'urgence d'une pareille entreprise : traduire, autant que possible dans toutes les langues, les œuvres maîtresses tant littéraires que scientifiques dans quelque langue qu'elles soient écrites. L'ampleur gigantesque d'une pareille tâche n'échappait point certes aux membres du Comité : mais l'essentiel pour eux était de se mettre à l'œuvre. le Comité estimait par ailleurs qu'il n'était pas possible d'arrêter un plan d'ensemble et, partant, jugeait utile d'en confier l'élaboration et la réalisation à des centres régionaux mieux indiqués pour faire la part des besoins, des moyens et des possibilités. Le Comité songea, par la même occasion, à d'autres recommandations de détails dont les termes sont consignés dans les procès verbaux des séances.

Quelques mois plus tard, en novembre-décembre 1948, l'Unesco essayait de créer à Beyrouth le premier centre régional de traduction pour le monde arabe. Le gouvernement libanais facilita la chose en en prenant l'initiative et en s'engageant à verser une subvention annuelle de 15.000 dollars.

l'Unesco promit d'en faire autant et les deux parties, de ce fait, s'entendirent pour la création d'un centre autonome ayant sa personnalité morale et qui prenait à charge “la traduction, l'édition et la diffusion” des oeuvres classiques étrangères.

Le centre, qui a son siège à Beyrouth, se compose actuellement de trois membres libanais choisis par le gouvernement de Beyrouth et de trois autres membres, un Français, un Anglais et un Américain représentant l'Unesco.

Des places, deux par Etat, sont prévues pour les autres pays arabes. Jusqu'à présent, aucun Etat du Proche-Orient n'a envoyé des représentants à ce centre, de sorte qu'en fait ce dernier reste limité à l'Unesco et au Liban. Or cet état des choses appelle naturellement quelques observations.

Il est d'abord regrettable que la création de ce centre n'ait pas été proposée en même temps à tous les gouvernements du Proche-Orient, ce qui aurait permis la constitution d'une convention étudiée et approuvée en même temps par l'Unesco et par les représentants qualifiés des gouvernements du Proche-orient ; car il y a loin du fait d'être membre fondateur à celui d'être membre venu au centre après sa fondation. Il est permis de déplorer en outre que l'on n'ait prévu le même nombre de places pour les quatre Etats du Proche-Orient : l'Egypte, le Liban, la Syrie et l'Irak qui marquent un intérêt très prononcé pour la culture par la traduction. L'article 4 des statuts consacre en effet une inégalité entre les Etats. Les membres du Centre régional ne devant pas excéder le nombre de douze, l'Egypte, la Syrie et l'Irak n'auraient chacun que deux places au moment où l'Unesco et le Liban disposent chacun de trois places. Du reste, il y a un air d'inégalité qui circule dans tous les statuts, dans les articles 12 et 14 notamment, où le Liban et l'Unesco jouissent d'un traitement de faveur. Il me semble indispensable de modifier tout cela, d'atteindre sans tarder les gouvernements du Proche-Orient pour obtenir leur adhésion, et qu'une commission soit constituée sur un pied d'égalité,

dût-on porter à quinze au lieu de douze le nombre des places, car dans des entreprises de cette envergure, il est bon d'éviter, autant que possible, tout ce qui pourrait, de près ou de loin, froisser le légitime amour propre de chaque Etat.

Ceci dit, il me semble que ce serait une erreur d'envisager cette entreprise de traduction, en arabe, ou de l'arabe, comme si l'on voulait créer ex nihilo, ou comme si, dans ce domaine, tout absolument était encore à faire.

Il existe, en effet, deux traditions parallèles dont il serait bon de tenir compte pour la réalisation d'un tel projet. Il y a d'abord une tradition de traduction en Orient. Depuis très longtemps le monde arabe a considéré la traduction comme un moyen essentiel de culture. Nul n'ignore ce que les anciens arabes ont fait et jusqu'à quel point ils ont profité des traductions ; de telle sorte qu'il est permis de dire que c'est grâce à ces traductions que la civilisation musulmane a été ce qu'elle a été. On n'apprend rien à personne en disant que c'est grâce aux travaux de traduction entrepris depuis la fin du premier siècle de l'Hégire et poursuivis jusqu'au milieu du IVe siècle que les Arabes ont été les héritiers du patrimoine grec classique et qu'ils ont pu en faire connaître l'essentiel à l'Occident. En effet, pendant trois siècles, les Arabes puisèrent chez les nations civilisées avant eux tout ce qu'il fallait pour que leur Etat naissant ne fut pas inférieur aux empires qui avaient, auparavant, dominé le monde; la médecine, les mathématiques, la sagesse des Indes, la Politique et l'administration persanes, toute la philosophie et toute la science grecques furent traduites ; très souvent grâce à l'initiative de l'Etat et parfois grâce à l'initiative privée.

On vit alors le monde Musulman partagé en trois camps, exactement comme on le voit aujourd'hui dans le Proche-Orient; Il y avait les partisans de la culture orientale hindoue-iranienne, les partisans de la culture hellénistique, et les conservateurs qui rejetaient les deux formes de cultures, au moins en apparence et qui prétendaient se contenter des sciences traditionnelles de religion et de philologie

arabes... Comment ne pas penser, par analogie, à ce que l'on voit de nos jours dans le Proche-Orient? Ne connait-on pas en effet des partisans de la culture anglo-saxonne, ceux de la culture française, enfin les conservateurs qui veulent, toujours au moins en apparence, s'en tenir à l'héritage musulman tout en profitant par ailleurs des avantages matériels de la civilisation occidentale? Si les Arabes n'ont pas été très loin dans la traduction des oeuvres hindoues et chinoises, c'est qu'il y avait à cela une double raison d'opportunité religieuse et de connaissance insuffisante de ces langues. Cela ne les empêcha pas cependant d'être aussi renseignés que possible sur ces deux pays, grâce aux rapports des voyageurs et des commerçants, témoin le beau livre anonyme dont M. Sauvaget vient de publier le texte arabe et la traduction française dans la collection G. Budé ; le livre en question date du IIIe siècle de l'Hégire. Il est certain d'autre part, que les Arabes ont tenu à connaître et ont connu effectivement tout ce que les chrétiens de l'empire byzantin et du monde du Proche-orient, connaissaient en fait d'hellénisme. Platon, Aristote, Plotin, leurs commentaires, les Apocryphes qu'on attribuaient aux trois philosophes ; Galien, Ptolémée, Euclide et leurs commentaires, tout cela fût traduit, commenté et utilisé aussi bien dans des buts théologiques que dans des buts de philosophie pure. Si les Arabes n'ont pas traduit la poésie grecque, qu'elle soit épique, lyrique ou dramatique, c'est que ce genre de production littéraire n'était pas à l'honneur dans le monde chrétien d'alors et qu'il ne s'accordait pas avec le monothéisme musulman comme il ne s'accordait pas avec le monothéisme chrétien.

Cette intense activité dans le domaine de la traduction, paralysée un moment par la prépondérance de l'élément turc dans l'empire musulman reprit au commencement du XIXe siècle de l'ère chrétienne, lorsque l'Egypte, grâce à l'expédition française prit contact avec l'Europe et que le Levant, le Liban en particulier grâce aux missionnaires Jésuites et Protestants renoua avec les traditions européennes. Mais bien que tout au long du XIXè siècle, les

traducteurs n'aient pas chômé pour alimenter l'esprit arabe, leur travail cependant péchait à la base. Ils dirigeaient leurs efforts dans un sens pratique et utilitaire dominés qu'ils étaient par le souci de l'immédiat. Comme autrefois à Bagdad, les exigences de la vie quotidienne continuaient de passer au premier plan. D'où un intérêt trop grand accordé au domaine scientifique au détriment des œuvres littéraires. On peut aller plus loin et remarquer qu'à l'intérieur même de ce domaine scientifique, les manuels et les livres scolaires l'emportaient sur les œuvres maîtresses.

L'autre tradition à laquelle je faisais allusion est celle des orientalistes. je ne m'attarderai pas sur la traduction en latin des œuvres arabes faites pendant le Moyen-Âge en Espagne et ailleurs ; je mentionnerai surtout l'effort des orientalistes. Il remonte à la Renaissance. Ils ont approfondi la littérature, la philosophie et la science musulmanes, remplissant ainsi le rôle que les Musulmans ont été eux-mêmes empêchés, par les vicissitudes de leur histoire, de remplir. Aussi le monde arabe contemporain ne saura-t-il jamais rendre aux orientalistes européens et américains la dette qu'il a contractée envers eux. Leur intérêt s'étend à presque toutes le branches de la culture musulmane, qu'ils ont étudiées et développées, ainsi qu'aux œuvres essentielles qu'ils ont traduites, ou bien éditées et commentées, facilitant ainsi leur transposition en n'importe quelle langue étrangère.

Mais les orientalistes sont avant tout des savants qui jusqu'à présent se sont intéressés aux anciens ; d'autre part, ils travaillent pour la science pure et s'adressent aux spécialistes. Ils ne songent point au grand public, et on ne peut guère leur demander de le faire... je dirai même qu'ils ne pensent pas à des savants qui ne seraient pas orientalistes ; de sorte que malgré l'effort intense qu'ils fournissent et les résultats merveilleux auxquels ils sont arrivés, une sorte de cloison étanche isole leurs travaux des disciplines de la science et de la culture modernes. Un philosophe non orientaliste se heurtera, de ce fait, à d'immenses difficultés s'il essaie de réaliser, d'une façon satisfaisante, les progrès que les Musulmans ont fait faire à la philosophe grecque.

De même qu'un historien des idées, des sciences, voire des Arts Appliqués sera toujours handicapé par l'érudition minutieuse et trop poussée des orientalistes.

Il faudrait donc arriver 1) à mettre à la disposition du grand public ce qui lui est accessible de la culture musulmane ancienne et moderne ; 2) à faire connaître aux spécialistes de la culture européenne ce qui peut lui être utile de la pensée musulmane.

Un historien de la philosophie trouve indispensable de posséder une culture greco-latine, et cette dernière lui est rendue familière, soit par la connaissance du grec et du latin qui lui permet d'aller aux sources, soit par les travaux des hellénistes et des latinistes, qui l'initient à cette culture. Malheureusement, il n'en est pas de même, pour lui, des œuvres rédigées en arabe, en persan, ou en n'importe quelle langue orientale. Il serait donc normal de les mettre à sa portée, sans pour cela exiger qu'il soit arabisant, iranisant ou hindouiste.

En considérant ces deux traditions et ce que la compréhension des deux mondes l'un par l'autre leur doit, nous ne pouvons nous empêcher de constater que beaucoup a été fait dans le domaine de la traduction, aussi bien en arabe que de l'arabe, mais qu'il reste encore beaucoup à faire et que c'est à l'Unesco à le réaliser. Se maintenant à l'écart du double danger de l'utilitarisme et de la fantaisie auxquels se sont vus exposés les gouvernements et les initiatives privées, l'Unesco fera de la traduction une chose méthodique.

Quand elle voudra enrichir les différentes langues, elle ira aux œuvres essentielles qui sont le fondement même de la pensée. Parallèlement, au sens de la méthode qu'elle exigera de ses collaborateurs, elle veillera à ce que les œuvres traduites le soient d'une façon désintéressée. Que les deux idées qui soutiennent et guident cette vaste entreprise soient d'une part d'enrichir les langues et d'autre part de communiquer aux peuples le fond des pensées qu'ils ignorent ou ne connaissent qu'insuffisamment. Il est inadmissible qu'au stade actuel de l'esprit universel, tout Shakespeare, tout Descartes et tout Goethe,

pour ne citer que quelques noms, ne soient pas à la portée des peuples de l'Orient, dans la langue arabe. C'est au prix de cet effort de traduction que cette dernière, pour l'avenir même de la culture, deviendra dans les temps modernes, comme elle le fût au Moyen-Âge, une langue d'humanisme permettant sur une plus vaste échelle, le rapprochement entre les esprits. Mais la réciproque est aussi valable, il est grand temps que des auteurs comme Jahiz, Ibn Sina et Ibn Khaldoun, par exemple, soient traduits de l'arabe dans les langues européennes et que le totalité de leur œuvre soit connue au même titre que celle des grands esprits classiques de l'antiquité et des temps modernes. l'œuvre qui consisterait donc à faire réintégrer leur place à ces esprits de tout premier plan est une tâche qui s'impose. C'est à dessein que j'ai parlé de "totalité" en évoquant certains noms, car il faut à tout prix éviter les traductions partielles qui laisseraient persister la fantaisie qui a régné jusque là.

Il serait vain de nier à quel point tout cela est sérieux et le service considérable que l'Unesco pourrait rendre à l'esprit universel. pour ne m'en tenir qu'au seul Proche-Orient, il me semble que l'Unesco pourrait à juste titre s'enorgueillir un jour si elle allait jusqu'au bout de ses projets, d'avoir donné à la langue arabe tout Molière et tout Shakespeare, et aux divers pays d'Occident toute l'œuvre de tel poète ou de tel prosateur Arabe. De plus, l'Unesco pourrait être convaincue que son effort ne sera pas perdu ; il rencontrera au contraire dans le Proche-Orient un vif écho, car il y a dans tout l'Orient une curiosité et un désir de connaître qui passent toute expression. Evidemment le monde arabe actuel a sur l'ancien l'inestimable avantage de connaître les langues européennes. L'élite qui parle une ou plusieurs de ces dernières lit aisément les œuvres des grands maîtres dans le texte, subit leur influence et l'étend à différents milieux. Mais ceux qui entendent les langues étrangères forment et formeront toujours une minorité. Il est donc indispensable que le grand public dispose lui aussi, dans sa langue, de tout ce qui constitue le patrimoine de la civilisation humaine. Je me souviens, à cette occasion, qu'il y a une quinzaine

d'années, je faisais en Arabe une série de conférences sur Voltaire, Rousseau, Renan et Taine, et que des milliers d'auditeurs suivaient ces conférences avec une attention et un intérêt manifestes. Or, la plupart des auditeurs étaient recrutés parmi les Azhariens, étudiants de l'Université religieuse, qui ignoraient les langues étrangères, mais qui étaient désireux d'apprendre ce que des auteurs comme ceux dont je les entretenais pensaient de tel ou tel problème. Il se trouvait et se trouve qu'aucun de ces écrivains n'est traduit en Arabe.

Que cet exemple entre mille suffise à marquer le besoin profond auquel répondra l'effort de l'Unesco et laisse entrevoir le succès que connaîtra son entreprise.

Pratiquement, et pour aider à la réalisation d'un plan aussi vaste et d'une œuvre intellectuelle et humanitaire que j'appelle de tous mes vœux, je propose:

La création d'un centre régional qui aurait son siège à Beyrouth mais qui comporterait une égalité complète entre les membres. Il serait subventionné par tous les états qui en feraient partie et par l'Unesco.

Dans chaque pays, la formation d'une sous-commission nationale constituée de personnes compétentes pour tout ce qui concerne la traduction, l'édition et la diffusion des œuvres classiques.

Le centre n'aura effectivement qu'à approuver les plans élaborés dans chaque sous-commission, à en coordonner les travaux et à les mettre à exécution.

Etant donné l'importance du plan de traduction, il faut qu'une fois approuvé par le centre régional, il soit soumis à un Comité d'Experts de l'Unesco.

Le comité de l'Unesco réuni en Mai 1948 avait préconisé la création d'un Comité central d'experts siégeant à Paris et qui aurait à conseiller l'Unesco sur tout ce qui concerne la traduction. Il assurerait, me semble-t-il, l'équilibre entre les travaux des différents centres de l'équilibre entre les idées et les tendances au sein d'un même centre.

Il va de soi que la traduction de chaque œuvre sera, avant l'impression, soumise à des experts qui font autorité dans les deux langues, de l'original et de la traduction.

Et comme double tâche préliminaire que je proposerais aux organismes ainsi conçus, et dans le but d'éviter, dans la mesure du possible, des erreurs dont le centre de Beyrouth n'a pas su se préserver (comme de vouloir traduire la partie psychologique seule des pensées de Pascal au risque de la mutiler ; ou de songer à traduire des œuvres dont nous possédons déjà une version arabe comme le Premier Faust et Jules César), il y a :

à dresser la liste complète de tout ce qui a été fait dans les différents pays, dans le domaine de la traduction, et dans le cadre du plan de travail prévu et ce, pour ne pas s'exposer à retraduire des œuvres déjà traduites, à moins qu'il ne faille simplement améliorer ces traductions.

Rien n'empêche, en même temps que cette bibliographie restreinte, d'établir une fois pour toutes la liste de tout ce qui a été traduit en vue d'un fichier général qui serait une source précieuse de documentation pour les chercheurs et une étape préliminaire qui faciliterait par la suite la réalisation des nouveaux plans de travail.

à établir un plan de travail pour une période déterminée et à partager ce travail entre les pays et les sous-commissions. L'Egypte par exemple se chargerait de Goethe, le Liban de Descartes ou de Molière etc...

Il n'est pas interdit, il est même excellent de penser au grand public et de prévoir, à côté du plan de traduction des œuvres maîtresses, un plan de traduction des œuvres modernes qui peuvent toucher le lecteur moyen directement et facilement. Ce serait là un moyen efficace de culture pour la masse et de rapprochement entre les esprits. La vente assurée de ces œuvres, sur une vaste échelle, permettrait même à l'Unesco de traduire, au risque de ne pas les écouler facilement, des œuvres particulièrement destinées à l'élite.

Ces questions de détails sont susceptibles d'être modifiées, pour se plier, au fur et à mesure du travail, aux nécessités que la réalisation d'un tel projet mettra en lumière. L'essentiel est que ce but humanitaire que l'Unesco se propose de poursuivre soit atteint et qu'il soit un jour permis de modifier sensiblement le vers de Kipling et de dire que "l'Est est l'Est, l'Ouest est l'Ouest, mais ils se rencontrent et ne se sépareront jamais".

APPENDICE I

Comme il a été dit plus haut, les Arabes se sont surtout occupés de traduire la philosophie et la science grecque, car cela correspondait à leurs besoins théologiques d'une part et techniques de l'autre.

Toute la littérature grecque, poésie comme prose fût négligée et même très souvent ignorée ; le même sort fût réservé à la littérature latine.

Dans ce domaine, tout reste à faire. Il faut tenir compte que le grec et le latin étant enseignés dans les Universités du Caire et d'Alexandrie depuis déjà quelques années, une jeune école Egyptienne d'hellénistes et de latinistes commence à se signaler : on s'essaye à traduire en arabe certains chefs-d'œuvres de la littérature grecque : Sophocle, Euripide par exemple, mais ce ne sont encore que des velléités.

D'anciennes traductions d'ouvrages philosophiques ou scientifiques grecs ont été faites très souvent d'après des traductions syriaques, quelquefois d'après l'original grec. En général, la langue de ces traductions est faible et leur exactitude laisse beaucoup à désirer. La majeure partie de ces traductions est perdue ou reste inconnue. Quelques unes sont accessibles soit dans les bibliothèques, soit dans certaines éditions faites par des orientalistes. Telle est la traduction de l' "Organon" ; elle date du IIIe siècle de l'Hégire et est en train d'être éditée par un jeune philosophe Egyptien, M. ABDEL RAHMAN BADAOUI de l'Université Fouad I du Caire.

Il n'est pas urgent de s'occuper actuellement de ces traductions, car d'une part, les Orientaux qui font de la philosophie grecque ou musulmane peuvent se rendre compte des œuvres originales, soit dans le texte, soit dans de bonnes traductions en langues européenne; d'autre part, toutes ces traductions ont été analysées et commentées par les trois grands philosophes musulmans: Farabi, Ibn Sina et Ibn

Rushd. Leurs œuvres sont ou éditées ou en voie de l'être. Le Gouvernement Egyptien est en train de donner une excellente édition de l'œuvre principale d'Ibn Sina : "Kitab al Chifa" qui analyse et commente toute la philosophie d'Aristote d'après les traductions de l'époque.

Il est à remarquer que les temps modernes voient renaître la tradition ancienne et l'on traduit la philosophie grecque d'après les traductions françaises ou anglaises.

L'ancien Recteur de l'Université du Caire, Ahmed Loutfi El Sayed Pacha, a déjà traduit : *La Morale à Nocomaque, la Politique* et *La Physique* d'Aristote.

Un Libanais, M. Khabaz, a traduit "La république" de Platon.

Sans doute, ces traductions de seconde main finiront - elles par aller rejoindre les anciennes traductions faites d'après le syriaque, lorsqu'on pourra traduire directement en travaillant sur le texte original. Mais pour le moment, on peut, semble-t-il s'occuper surtout de traduire les œuvres littéraires grecques et latines.

APPENDICE II

Le monde Arabe actuel ne connait que très peu de chose des civilisations de l'Inde et de la Chine.

D'abord parce que les anciens Arabes, comme il a été dit plus haut, n'ont pas cultivé les langues de ces pays et ne les ont connues que d'une manière indirecte ; ensuite, parce que le monde Arabe moderne est beaucoup plus en rapport du point de vue culturel surtout, avec l'Occident européen et américain qu'avec l'Orient Asiatique. Tout est donc à faire en ce domaine. Et, s'il est possible de faire connaître au monde Arabe les choses de l'Inde par les Hindous connaissant bien l'Arabe et pouvant donner de bonnes traductions, il n'en va pas de même pour les choses de la Chine ; là il faudra peut-être attendre quelque temps.

Par contre, grâce aux Universités du Caire et d'Alexandrie on commence à traduire de l'iranien et du turc de manière efficace. On a déjà fait revivre une ancienne traduction arabe du *Chahnamé*. On a traduit Hafiz. On s'occupe du Saadi et des grands mystiques iraniens. Il ne sera dont pas difficile de faire traduire les grands ouvrages des littératures iranienne et turque.

APPENDICE III

Il existe, en Proche-Orient, et particulièrement en Egypte et au Liban, un goût très marqué et qui se développe de plus en plus pour la traduction.

Au siècle dernier, on traduisait du français et de l'anglais. Depuis quelque temps, on commence à traduire de l'allemand et de l'italien.

Certainement de bons traducteurs de ces quatre langues ne manquent pas en Egypte. Au Liban et en Syrie, il y en a également pour le français et l'anglais. Et grâce aux grandes colonies libano-syriennes d'Amérique Latine, on pourrait en trouver pour l'espagnol. Il est difficile actuellement et il restera difficile pour quelque temps encore d'en trouver pour le russe et les langues scandinaves. On traduit pourtant Dostoïevski, Tolstoi, Ibsen, mais d'après l'anglais ou le français.

En Egypte, il y a des organisations gouvernementales ou privées pour la traduction ; mais elles s'occupent plutôt de manuels scolaires, de livres de vulgarisation et de romans qui touchent le grand public. On ne traduit du "classique" qu'au fur et à mesure des besoins de l'enseignement secondaire.

C'est ainsi qu'on est arrivé à traduire des pièces de Shakespeare : Hamlet, Jules César, Macbeth, le Roi Lear, de Corneille : Le Cid, Cinna, de Molière : *l'Avare* et *Tartuffe* (en langue vulgaire). Mais tout cela est très loin de répondre aux buts que poursuit l'Unesco.

APPENDICE IV

Les orientalistes ont traduit quantité de textes anciens, depuis le *Coran* jusqu'aux *Mille et Une Nuits* en passant par œuvres littéraires, philosophiques, philologiques et juridiques. Mises à part les traductions du *Coran* souvent défectueuses et celles *des Mille et Une Nuits*, ils n'ont pas pu toucher le grand public, soit qu'ils entourent leur traduction de beaucoup d'érudition qui ne peut intéresser que les spécialistes, soit que leurs traductions s'adressent aux seuls orientalistes dans des éditions à tirage restreint.

L'Association Guilaume Budé s'intéresse actuellement à la publication et à la traduction des textes arabes. Cette entreprise est excellente et pourra rendre de très grands services aux spécialistes non orientalistes qui aimeraient connaître mieux la civilisation musulmane. Elle a donné jusqu'à présent deux textes : le premier est une préface d'un livre sur les poètes dont l'auteur Ibn Kotaiba vivait au IIIe siècle de l'Hégire. Cette préface intéressera les spécialistes qui s'occupent de l'histoire générale de la critique, mais elle n'est qu'une préface et on aimerait voir le professeur Godefroy Demonbines s'occuper de la totalité de ce livre d'Ibn Kotaiba qui est un bon précis de l'histoire de la poésie jusqu'au IIIe siècle de l'Hégire.

Le second est un livre anonyme qui date du IIIe siècle et qui donne des renseignements sur l'Inde et la Chine. Texte et traduction sont excellents ; ils intéressent les historiens aussi bien que les géographes, mais ce n'est pas une œuvre essentielle ; encore une fois, c'est un choix personnel qui a déterminé l'édition de ces deux ouvrages. Il serait bon que l'Association Guillaume Budé travaillât selon un plan bien établi et bien adapté aux besoins du monde savant et du grand public, et en accord avec les buts de l'Unesco, mais cela demande un encouragement matériel et une collaboration étroite entre les orientalistes de l'Occident et de l'Orient.

Il existe d'excellentes traductions faites au siècles dernier qui n'ont pas touché le grand public, et qui n'ont guère dépassé le cercle des orientalistes.

Je n'en donnerai que deux exemples. La traduction des *Prolégomènes* d'Ibn Khaldoun faite par De Slane et qui révèle un précurseur de premier ordre en philosophie sociale vivant au XIVe siècle de l'ère chrétienne ; et la traduction des *Prairies d'Or* de Massudi, faite par Barbier de Meynard, qui jette une lumière très suggestive sur la civilisation musulmane des IXe et Xe siècles de l'ère chrétienne.

Ces traductions ou d'autres, que je n'ai pas mentionnées mériteraient d'être revues et rééditées. Nul doute qu'elles ne suscitent un grand intérêt aussi bien dans le monde des historiens de la civilisation que chez les lecteurs moyens.

L'Unesco seule peut rendre la vie à ces œuvres qu'il n'est pas permis de laisser mourir.

AVANT - PROPOS

PAR LE DR TAHA HUSSEIN PACHA

Quand il s'est agi de célébrer le millénaire d'Abou l'Alâ, j'avais été d'avis que la meilleure participation de l'Egypte à cette célébration ne pouvait être que de retrouver l'héritage du Cheikh de Ma'arra et d'éditer cette œuvre avec un soin critique moderne. J'avais soumis cette proposition au Ministère de l'Instruction publique d'alors, Naguib El Hilali Pacha : il l'approuva et forma une commission pour passer à la réalisation. A cette commission, il fournit toute l'aide matérielle dont elle avait besoin. Il lui en facilita la mise en train de la tâche malgré les circonstances difficiles que traversait le monde en ces heures de son histoire. Aussi la délégation égyptienne, lors de cérémonies de Damas en 1944, fut-elle en mesure de présenter aux assistants le premier livre de cet ensemble auquel on n'a point cessé de travailler sans discontinuer jusqu' à maintenant.

Quand on parla à ce moment de célébrer le millénaire du prince des philosophes musulmans et du plus grand d'entre eux sans conteste, le Cheikh Abou 'Ali ibn Sîna, j'ai pensé que la meilleures participation de l'Egypte devait être analogue à celle de notre pays lors des fêtes de Abou l'Alâ : il fallait ressusciter l'héritage de l'éminent Cheikh comme avait été ressuscité celui du poète, "le prisonnier des deux prisons".[1]

Je présentai cette proposition à M.Ali Bey Ayyoub, Ministre de l'Instruction Publique de cette époque, il l'approuva comme avait fait Naguib el Hilâli. Il forma lui aussi une commission et se préparait à

(1) La cécité et sa naissance. [Une note ajoutée à la main. Mais les deux prisons dont le poète a parlé étaient sa cécité et son isolement auto-imposé. (M)]

lui fournir toute l'aide et tout l'appui dont elle avait besoin lorsqu'il quitta le ministère avant que la commission ait eu le temps d'avancer son travail. Il était peut être écrit que je serais chargé du Ministère de l'Instruction Publique.

Aussi ma première pensée fut-elle d'accomplir la tâche qu'avait entreprise mon prédécesseur Ali Bey Ayoub, et de fournir à la commission l'aide matérielle et les encouragements qu'il avait bien voulu lui donner. C'était acquitter une dette à l'endroit du Prince des philosophes musulmans. C'était aussi accomplir un devoir que la politique n'avait point permis à Ali Bey Ayoub de remplir. Tandis que je dicte ces lignes, les prémices de cette grande œuvre se trouvent devant moi et ma première expression de reconnaissance doit aller à ce ministre diligent qui entendit l'appel de l'intelligence et qui voulut y répondre en dépit des rivalités politiques.

Quand à cette commission qui a mis en train le travail et entend le mener à bon terme, jusqu'au succès, si Dieu le veut, j'en connais véritablement tous les membres ; chacun est un ami pour moi, et la plupart d'entre eux sont de mes anciens élèves. Je sais qu'aucun d'eux ne tient à être remercié pour le bien qu'il réalise ; ils appartiennent seulement à cette catégorie d'hommes qui trouvent leur satisfaction, la joie de leur âme et la paix de leur conscience dans l'accomplissement du devoir et la part prise à une réalisation d'intérêt général. Ils pensent que leur culture les oblige à une telle attitude, ils jugent qu'ils sont engagés vis à vis des hommes de science.

De plus, ils ont donné leur préférence à l'héritage islamique avec tout la force, la ténacité, le temps dont ils disposaient. Ils ont payé jadis sa connaissance du prix de leur jeunesse, ils payent aujourd'hui sa reviviscence du prix de leurs journées ensoleillées et de leurs nuits entourées d'ombres. Aucune difficulté, quelle qu'elle soit, ne les détourne de leur but ; aucune circonstance, si critique soit-elle, ne les fait retourner en arrière. Ils ont vécu pour l'étude et ils savent comment vivre par elle et pour elle. Ils ont été chargés d'une besogne

astreignante, ardue, mais ils le font avec courage ; ils n'ont pas ralenti leur marche, ils n'ont point tergiversé. Ils aiment leur tâche pour la peine et l'effort dont elle les charge et ils l'accomplissent sans faire cas des soucis qu'elle leur occasionne.

Car devant eux, tout était difficile ; le livre du chifâ', dont ils avaient pris sur eux d'attaquer l'édition était, dans l'héritage philosophique d'Avicenne, le plus considérable, le plus vaste, celui dont la renommée avait pénétré le plus profondément dans l'histoire de la pensée humaine. On en parlait beaucoup sans s'en faire une idée exacte, on se le représente à peine. Les chercheurs avaient tout juste retrouvé un texte dispersé dans tous les coins de l'Orient et de l'Occident. Ce qui en avait été imprimé en Perse n'était point assez sérieux et ne présentait pas un caractère suffisamment intéressant comme essai d'édition pour satisfaire chercheurs et savants. Mais la commission provoqua les occasions et demanda les manuscrits. Elle fut aidée dans cette entreprise par les efforts fructueux que déploya la Direction Culturelle de la Ligue Arabe pour rassembler les écrits d'Avicenne partout où il fut possible de le faire.

Ces savants ne se contentèrent pas des textes arabes et des exemplaires qui furent préparés et qu'ils purent obtenir. Ils étudièrent ce qui reste actuellement des traductions latines médiévales de ce texte. Ils invitèrent en Egypte Mademoiselle d'Alverny, une française, qui a consacré à l'édition de ces traductions une part importante de ses efforts et de ses activités. Ils confrontèrent le texte latin qu'elle possédait et ceux qu'ils avaient entre leurs mains : leur ambition grandit et ils résolurent de procurer à leur patrie la gloire d'éditer aussi bien les textes arabes que l'ancienne version latine. Et voici que cette sollicitude pour l'ouvrage d'Avicenne ne se borne plus à l'Egypte, elle traverse les frontières. Tous les savants s'y associent, quelles que soient les différences de race ou de religion, car la science ne connaît de différence ni de race, ni de langue, ni de religion.

Trois ans ont passé depuis que ces érudits ont attaqué leur travail; ils y ont mis tout leur sérieux, sans compter leur fatigue; ils travaillent en équipes, ils travaillent aussi seuls,[1] ils travaillent en Egypte, ils travaillent également au cours de voyages à l'étranger. Qu'ils soient en différents pays, le meilleur de leur âme reste attaché à une roche que l'homme est incapable de briser.

Cette roche est la roche du Savoir que les vicissitudes du sort ne contribuent qu'à durcir, que les différences de temps et de lieu rendent plus résistante pour vaincre le temps et le lieu. Et voici que ces hommes offrent aux savants et aux chercheurs du monde entier les prémices de leurs féconds efforts ; les courriers d'Egypte hâteront de les porter vers ceux qui commémoreront l'anniversaire d'Avicenne à Bagdad et à Téhéran, annonçant ainsi que leur Patrie a une méthode pour restituer le souvenir des écrivains et des philosophes : mettre en lumière leur héritage, le répandre et rendre une seconde fois l'existence aux grands hommes du passé.

Cette manière de commémoration est, me semble-t-il, préférable à toute autre : elle apparaît comme la plus propre à ranimer le souvenir des penseurs et ce qu'ils leur ont laissé, la plus propre à faire profiter les hommes et à les préserver eux mêmes de l'oubli. Abou l'Alâ n'a point laissé seulement derrière lui des souvenirs historiques sans intérêt profond, il a laissé des livres vers lesquels se tendent les mains et les yeux et qui réjouissent les cœurs et les intelligences. L'héritage d'Avicenne comme celui de Abou l'Alâ est formé de réalités, non point de souvenirs historiques ou anecdotiques.

Au groupe de savants qui nous donne cette partie du Chifâ', j'adresse mon salut ; je les félicite sincèrement pour l'effort qu'ils ont fourni, la véritable victoire qu'ils ont remportée et le profit dont ils feront bénéficier les autres. Et me voici le plus heureux des hommes à la

---

(1) 'Isolement' dans le texte original. (M)

pensée que je leur ai procuré cette occasion de vivre avec Avicenne le meilleur de leur vie et d'être conduits à célébrer son anniversaire, à entrer en lice pour revivifier sa mémoire et la rendre immortelle et à ressusciter heureusement une œuvre ensevelie dans la tombe de l'oubli.

TAHA HUSSEIN

LES MOTAZILITES ET LEIBNIZ[1]

Les théologiens musulmans seraient bien surpris, s'ils lisaient Leibniz, de retrouver dans la Théodicée des idées qui leur sont familières puisqu'elles ressemblent étrangement à celles qu'on discute encore à l'Azhar quand on étudie les doctrines des Motazilites. Ceux-ci. en effet, se rencontrent avec Leibniz sur bien des points. Je me contenterai d'en indiquer deux :

1. Le premier est la conception même de Dieu. Les Motazilites, on le sait, furent condamnés par les Musulmans orthodoxes[2] parce qu'ils professaient que les attributs de Dieu ne se séparent pas de son essence. Ils disaient que Dieu est la cause de toutes choses, qu'il a en lui la raison de son existence et que par conséquent il et nécessaire (   ) et éternel (   ) que le monde étant possible (   ) ne pourrait pas exister sans une raison suffisante (   ) qui détermine son existence et le fait préférable[3] à d'autres mondes possibles comme lui[4], que cette raison suffisante est dans l'entendement (   ) et dans la volonté (   ) de Dieu ; car Dieu, étant nécessaire et ayant en lui sa raison d'être doit être intelligent (   ), voulant (   ) et puissant (   ). Par son intelligence il connaît les possibles. Par sa volonté il choisit. Et par sa puissance il crée. Mais l'intelligence, la volonté et la puissance ne sont pas des attributs séparés de l'essence

(1) Texte d'un projet d'article que Taha Hussein a lu à la Conférence des Orientalistes tenue à Oxford en 1928. Il semble que l'auteur, en laissant des lacunes entre parenthèses et dans les notes en bas de page, avait l'intention de fournir les renseignements qui manquaient lors de sa lecture de son article à la conférence. (M)

(2) voir, Tome III , p.p.259-260, Constantinople, 1311 de l'Hégire. [Les. (M)]

(3) 'Préférer' dans le texte original. (M)

(4) voir, Tome III, p.p.3 et 4.

divine (   ) : ils sont l'essence même de Dieu (   )[1]. S'ils étaient autre chose que l'essence de Dieu, ils seraient ou nécessaires et éternels comme lui, et alors Dieu ne serait pas un, il y aurait autant de dieux que d'attributs ; ou bien ils seraient possibles et ne pourraient être l'attribut de dieu, le possible ne pouvant être attribut du nécessaire. Les Motazilites croyaient réaliser ainsi l'unité parfaite de Dieu et se paraient volontiers du titre de (   ) c'est-à-dire partisans de l'unité divine.

Comme Leibniz, ils prouvaient donc l'existence de Dieu par la possibilité du monde et la nécessité d'une raison suffisante pour qu'il existe. Comme Leibniz aussi, ils trouvaient cette raison suffisante dans l'entendement et la volonté de Dieu. Comme lui enfin ils reconnaissaient à Dieu l'intelligence, la volonté et la puissance. Mais tout en lui reconnaissant ces attributs, ils affirmaient comme Leibniz qu'ils étaient son essence même.[2]

2. Le deuxième point est la conception de la justice divine. Les Motazilites ne s'appelaient pas seulement [*ahl al-tawhid, c'est-à-dire les partisans de l'unicité de Dieu*][3], ils s'appelaient aussi [*ahl al-'adl'*][4], partisans de la justice de Dieu. De très bonne heure, avant même qu'ils ne subissent l'influence profonde de la philosophie grecque, et au moment où ils ne faisaient que raisonner sur les divergences politiques des Musulmans du 1er siècle, ils professaient à Basrah que Dieu étant absolument juste ne peut que rétribuer les hommes selon leurs œuvres : l'homme de bien doit être admis à la félicité éternelle; l'infidèle damné et le pécheur éternellement contraint à subir une peine en rapport avec son péché : c'est la fameuse place intermédiaire (   ) réservée au Musulmans qui ayant péché et ne s'étant pas repentis ne pouvaient ni entrer au

(1) voir   , Tome III, p.283.
(2) voir Leibniz : Théodicée V.
(3) Espace laissé vide dans le texte original. (M)
(4) Espace vide dans le texte original. (M)

Paradis, ni être assimilés aux vrais infidèles. Dieu ne peut rien changer à cet ordre de choses[1] sans porter atteinte à sa justice.

Cette doctrine implique nécessairement celle de la liberté de l'homme, puisque sans elle, la justice de Dieu serait vaine. Mais Dieu n'est pas seulement juste, il est bon et sage. Et par conséquent il ne peut et ne veut que le bien.

De cette doctrine à la doctrine du meilleur possible, il n'y a qu'un pas. Les Motazilites le franchirent de bonne heure. Si Dieu ne peut pas faire le mal, parce qu'il répugne à sa bonté et à sa sagesse, le bien qu'il fait doit être le meilleur possible, autrement Dieu ne serait par parfaitement bon, ni parfaitement sage. Dire qu'il y a un bien possible que Dieu n'a pas voulu faire, c'est diminuer la perfection divine. Dès le milieu du IIè siècle, la doctrine du meilleur possible ( ) était achevée et trouvait à Basrah et à Bagdad des défenseurs aussi convaincus et aussi subtils que Al-Nazzam[2] ( ), Abul-Huzail ( ) et Bishr Ibn al-Mutamer ( ).

Bien entendu elle n'a pas tardé à susciter une réaction très forte des orthodoxes : et à lire les discussions[3] des Musulmans partisans et adversaires du meilleur possible, on a absolument l'impression de lire les polémiques entre Bayle et Leibniz. C'est la même façon de poser la question puisque les Motazilites prouvent comme Leibniz la nécessité du meilleur possible par la bonté, la sagesse et la perfection de Dieu. Même façon de la combattre, puisque les adversaires des Motazilites, comme ceux de Leibniz objectent d'une part l'existence du mal, d'autre part que le système du meilleur possible limiterait la puissance de Dieu. Même discussion de détails puisque les adversaires des Motazilites comme ceux de Leibniz encore objectent la souffrance des bêtes et des innocents, la mort des enfants en bas-âge.

---

(1) voir : , Tome III, p.283.
(2) voir : , Tome III, p.283.
(3) voir la longue et pittoresque discussion de cette question dans , Tome III, p.p.97-188, Le Caire, 1320 de l'Hégire.
Voir aussi , Tome III, p.p.145-165

L'anecdote suivante[1] donne une idée de ces disputes :

Al-Ashari (   ) demanda à son maître Motazilite Al-Jebbai (   ) :

"que dis-tu de trois frères morts, le premier en bon musulman, le second en infidèle, et le troisième en bas-âge?"

"le premier", répond le maître, "ira au Paradis, le second aux enfers et le troisième nulle part."

"Mais", riposta l'élève, "que dira le Seigneur, si le troisième lui demande : "Pourquoi ne m'as-tu pas laissé vivre? j'aurais cru et fait le bien et par conséquent j'allais au Paradis?". "le Seigneur répondra" dit Al-Jebbai,"C'est dans ton intérêt que je t'ai fait mourir, car je savais que si tu vivais tu deviendrais infidèle et que par conséquent tu irais aux enfers."

"Alors" dit Al-Ashari " si le second disait au Seigneur : " Pourquoi ne m'as-tu pas fait mourir en bas-âge puisque tu savais que je deviendrais infidèle et par conséquent damné? "

"Le Motazilite ne sut que répondre et Al-Ashari quitta l'école pour fonder la sienne. "

Les Motazilites se défendaient de la même manière que Leibniz en répondant que le mal n'était pas voulu par Dieu, mais inévitable et qu'au fond nous ne connaissons pas toutes les raisons qui font agir le maître de l'univers ; nous savons seulement qu'il est indigne de Lui de ne pas créer le meilleur possible.

Cette doctrine Musulmane qui dans le fond s'apparente bien à la doctrine de Leibniz en a même le nom, car le mot [arabe 'al-aslah' (M)] est la traduction exacte de l'optimum. Bien entendu il faut reconnaître que cette doctrine est dégagée chez Leibniz de l'anthropomorphisme qui l'alourdit et la rend plus ou moins naïve chez les Motazilites, mais n'oublions pas que Leibniz fait ce reproche

---

(1) voir :   , Tome III, p.157.

à Bayle, et que nous ne connaissons malheureusement la doctrine des théologiens de Bagdad que par leurs adversaires trop anthropomorphistes eux-mêmes. Il est probable que si nous avions eu un exposé fait par un Motazilite, elle serait allégée de bien des superstitions et aurait une tournure plus sérieuse, car ses partisans étaient les plus philosophes des Théologiens Musulmans.

Est-ce une simple coïncidence que cette ressemblance, j'allais dire cette identité des deux doctrines? Ou bien le Motazilisme, en passant par la philosophie scholastique aurait-il influencé Leibniz?

C'est là une question à laquelle je ne me permettrai pas de répondre.Il me suffit de l'avoir posée.

LA PUISSANCE MYSTIQUE DU CORAN EXPLIQUEE AUX NON-MUSULMANS[1]

Un musulman versé dans les traditions islamiques et élevé dans un milieu où le culte de la beauté du Coran est très développé, subit l'influence de ce livre fameux à un degré et avec une force que rien au monde ne peut égaler. Le Coran met les musulmans qui s'en pénètrent dans un état d'extase tout particulier ; à l'entendre on se sent élevé plus haut que soi-même ; un nouveau monde s'ouvre devant soi ; on est envahi par un bonheur mystique, par une béatitude qui est de la volupté spirituelle. Pour s'en faire une idée, on peut se rappeler ce que les grands musiciens doivent éprouver dans leurs moments les plus sublimes. L'influence du Coran sur les musulmans est d'ordre miraculeux et le miracle est si évident que nous n'avons pas besoin de l'analyser. Le miracle nous enveloppe de son mystère profond et touche nos âmes si profondément que sa nature est acceptée comme très proche du grand mystère de l'âme même et de Dieu. Aucune œuvre littéraire n'a jamais eu sur les hommes la maîtrise qu'a eue le Coran sur ceux qui sont à même d'en apprécier la puissance.

Malheureusement, les Européens, de même croirais-je volontiers que les Hindous et les Japonais, n'y trouvent rien de tout cela. Dire qu'ils sont sourds à la beauté du Coran comme on peut être sourd à la musique est probablement vrai, mais ne nous avance pas beaucoup.

Aussi est-ce dans le but d'expliquer aux non-musulmans l'influence unique du Coran que j'ai entrepris cette étude objective du grand livre ; et même plutôt que non-musulmans il vaudrait mieux dire non-

---

(1) J'ai trouvé plusieurs exemplaires de ce manuscrit dactylographié mais corrigé à la main ; même le titre a été enrayé, ce que veut dire que l'auteur n'en était pas satisfait. Étant une étude intellectuelle approfondie, on ne peut deviner par la nature du sujet à quelle date elle a été rédigée, ou à quelle publication ou à quel forum elle a été destinée. (M)

Arabes parce que les Arabes, même les chrétiens, sont sensibles à cette influence. J'ai dû renoncer à mes sentiments de musulman pour une minute car je cherche uniquement à étudier un phénomène d'ordre littéraire.

Tout d'abord les faits.

Un homme âgé de quarante ans avait passé sa vie à La Mecque paisiblement, sagement et avec beaucoup de distinction. Très correct, il était assez conformiste et ne laissait voir aucun symptôme de son prochain mouvement révolutionnaire. Jusqu'alors il n'avait jamais dit un mot qui ressemblât au Coran. Le Coran rappelle ce fait et, j'insiste, tout à coup, il sent un désir irrésistible de quitter La Mecque et de passer quelque temps dans le désert, dans la solitude d'une grotte[1]. Seul, il réfléchit, son âme est tourmentée, des sentiments sans ordre envahissent son cœur. Il cherche éperdûment à mettre en ordre un chaos de sensations nouvelles qu'il n'avait pas connues auparavant.

Entouré par la grande étendue du désert, il a dû trouver dans ce vaste espace, dans le silence palpitant que seul le désert offre et dans le calme des nuits accueillantes de ces régions, un repos et un soulagement à sa torture spirituelle. N'ayant jamais eu l'occasion de mettre ses expériences dans une forme connue, il souffrait de cette carence des moyens nécessaires pour donner une forme convenable à ses sensations, soit par action, soit par la parole. Une telle souffrance est compréhensible et plusieurs personnes l'éprouvent dans des moments moins angoissants.

Un soir, il n'en pouvait plus. Il était accablé et se trouvait dans un état d'extase qui le tourmentait atrocement. Tout à coup il se surprend à dire des mots arabes étranges et compréhensibles mais qui ne ressemblaient guère à ce qu'il avait dit ou entendu dire jusque-là. Chose curieuse, il a peur de ces paroles qu'il prononce lui-même. Il ne sait que faire en présence de cette révélation. Comme lors de toutes les

---

1 'Cave' dans le texte original. (M)

découvertes de grandes vérités, l'effet est accablant, irrésistible et écrasant. Il sent dans ces paroles une qualité particulière et bien qu'il continue à avoir peur, il subit lui-même leur influence mystérieuse. Il lui fallut quelque temps pour retrouver la clarté de son jugement (dont il était fier) et pour apprécier toute la valeur de sa découverte. Il répète ces versets peu nombreux à sa femme qui, elle aussi, les trouve merveilleux.

Ayant plus de confiance que lui, elle l'encourage à y croire. Peu à peu, les mots s'accumulent et deviennent de plus en plus saisissants. Mohammed trouve enfin le courage de les répéter secrètement à quelques amis qui s'avèrent convaincus par ses simples paroles sans aucun autre argument. Même les gens qui auraient dû trouver ces nouvelles conceptions nuisibles à leur intérêt n'échappaient pas à l'influence miraculeuse.

Des choses incroyables se passaient. Un arabe nomade, sur son cheval ou sur son chameau, entend par hasard quelques versets du Coran ; il s'arrête et va trouver celui qui dit ces paroles magnétiques, lui jure fidélité et met sa vie à sa disposition. Un courant d'enthousiasme passe sur le pays. Les habitants, bien que nomades et sans cohésion, ayant encore les idéaux des races primitives, constituèrent en quelques années sous le drapeau du Coran, une nation forte avec un idéal sublime. Le Coran les unissait car ils étaient unanimes sur un seul fait, le caractère divin du Coran.

Ces faits sont indiscutables. Mais on a cherché à en diminuer l'importance en se basant sur l'état primitif des Arabes. On a prétendu qu'il n'en faut pas beaucoup pour émerveiller ces simples habitants du désert aride. C'est une attitude qui se comprend facilement chez les savants du XIXè siècle mais qui est devenue assez démodée. Ces savants étaient ivres de leurs découvertes nouvelles, ils étaient catégoriques sur la valeur de tous les phénomènes. C'était l'axe de la ligne droite, de la finalité des lois, de la loi de la gravitation, de la conservation de l'énergie, de la lumière, de l'infinité de l'univers, de la connaissance des choses en dehors du temps, de la philosophie stationnaire et de la

séparation des classes et des races. Aujourd'hui tout cela a changé. Notre âge, c'est l'âge de la relativité des courbes dans l'espace, de l'univers fini et grandissant. On a même admis la destinée dans les phénomènes naturels comme la radioactivité ; c'est l'âge de la philosophie du mouvement, du temps et du changement, considérés comme l'essence même d'objets matériels. Rien ne peut plus être affirmé catégoriquement. Les savants européens sont au moins un demi-siècle en avance sur leurs contemporains politiciens, financiers, critiques et autres. Ils ont prouvé définitivement qu'au fond, les hommes se ressemblent d'une manière très humiliante pour les snobs. Les psychanalystes ont donné le coup de grâce à toute idée de supériorité innée de quelques individus ou de quelques nations. La puissance du subconscient est admise et c'est à peu près le même chez tous les hommes.

Or un phénomène est grand par son étendue. Peu importe le temps ou l'endroit où il a lieu. Il est bizarre de constater que des gens qui se cassent la tête à chercher à expliquer le sens d'un phénomène insignifiant comme le cubisme, méconnaissent ou passent à côté d'un phénomène unique et colossal comme celui de l'influence du Coran sur des millions et des millions d'hommes.

Nous avons donc toute raison de traiter ce phénomène comme un des plus remarquables de l'Histoire, d'autant plus que l'instrument de ce mouvement né parmi les illettrés est une œuvre littéraire, ce qui rend son succès plus curieux encore.

Dans tous les livres sacrés, le sujet principal est d'exhorter les hommes à faire le bien et à éviter le mal. Rien n'est plus facile que de faire des sermons de ce genre. Mais c'est une tout autre chose que d'impressionner les hommes et de les élever jusqu'à les faire vivre selon les règles de leur conscience, et leur faire accepter les sacrifices nécessaires. Quand ces hommes appartiennent à une race primitive et nomade et n'ont jamais eu la pratique des idées abstraites, le fait d'en faire en moins de trente ans une nation forte et unie allant à la conquête des grands empires voisins dans le seul but de leur faire

croire en un seul Dieu, apparaît comme une chose miraculeuse. Ces braves Arabes ne demandaient jamais de quel nombre et de quelle force étaient les armées qu'ils devaient rencontrer. Dans la bataille, le guerrier arabe levait son sabre pour abattre son adversaire et celui-ci n'avait qu'à dire « Il n'y a qu'un seul Dieu » et l'Arabe laisserait tomber son sabre pour embrasser son nouveau camarade. Des faits pareils montrent ces Arabes dans une extase et un délire que seul un idéal sublime peut inspirer. Rien n'est aussi irrésistible qu'un homme d'action pris par une idée abstraite à laquelle il consacre toute son énergie.

Les forces qui rendaient possible un tel résultat sont nombreuses. La situation de l'islam entre le judaïsme trop enclin à exiger les conséquences naturelles de nos actions et le christianisme trop enclin à les pardonner, devait rendre l'islam acceptable à une grande partie de l'humanité. La découverte capitale considérée comme le génie de l'islam est la *takwâ* qui suppose une harmonie parfaite entre la morale et la vie – une harmonie qui manquait un peu dans l'Ancien Testament aux dépens de la morale, et dans le christianisme aux dépens de la vie. Ces considérations, quoique très importantes, n'entraient cependant pour rien dans le mouvement des premiers musulmans arabes. Je ne veux pas aborder leur étude ici, je veux seulement signaler que tout le mouvement a été accompli par le Coran et je tâcherai d'étudier comment le Coran a pu réussir à l'accomplir.

Il a réussi uniquement par sa valeur littéraire. On lui reproche son manque de logique et de suite dans les idées. Pour pousser les hommes à faire preuve d'une telle force d'action, on n'a pas besoin d'arguments subtils et intelligents. Il faut faire appel à ce qui est chez nous de plus profond, plus humain dirais-je, que l'intelligence. Carlyle, tout en appréciant le mouvement islamique et surtout la sincérité du Prophète, n'a pas pu s'empêcher d'avouer que pour lui le Coran est d'une stupidité rare. Il aurait apprécié une logique plus exacte, un enchaînement des idées plus net, de l'ordre dans l'exposé, en somme il aurait voulu un livre qui s'adressât à l'intelligence.

Comme pour la plupart des philosophes de son temps, pour lui l'intelligence était tout dans la vie des hommes. Détrompons-nous, les hommes s'intéressent à ces arguments d'ordre intellectuel et s'en amusent mais ceux-ci n'ont pas la force dynamique de les entraîner. L'adoration de l'intelligence pure a fait son temps. Une fois détrônée, l'intelligence prendra sa place légitime et nous induira moins souvent en erreur. Elle représente en nous la qualité suprême de l'animal mais l'homme n'est pas seulement un animal intelligent. Ce n'est pas là son caractère distinctif. Il n'est pas non plus un « roseau pensant ». Il est un être doué de conscience qui a le sens du bien et du mal, du beau et du laid, en somme un animal artiste capable de jugements de valeur. Des philosophes ont essayé de faire la distinction entre l'intelligence et l'instinct, mais il est évident que les deux sont l'épanouissement de deux tendances du monde des animaux. Nous avons quelque chose que les animaux n'ont pas du tout, c'est l'âme, la conscience, le goût, trois choses qui, on a raison de le croire, n'en font qu'une. Ceci explique que l'absence d'argument s'adressant à l'intelligence ne diminue en rien ni la valeur du Coran ni sa force. Il y a des livres beaucoup plus intelligents que le Nouveau Testament mais quelle influence ont-ils eu sur les hommes? J'en dirais autant des banalités que l'on reproche au Coran. C'est peut - être banal de prêcher la vertu, d'exhorter les hommes à voir le très visible et à croire à une force créatrice et pourtant c'est le seul sujet de tous les livres sacrés. Faire de ces banalités une littérature magnifique, voilà le phénomène que nous voulons étudier.

Je reviens au grand reproche de Carlyle, la stupidité. Je voudrais nous rappeler une ligne de Shakespeare qui est peut-être la mieux connue de ses œuvres. C'est le fameux mot de Hamlet : « *To be or not to be, that is the question* ». Cette ligne a été citée plus que n'importe quel autre passage de la littérature anglaise et les étrangers qui ne savent rien de cette littérature anglaise la connaissent très bien. Je ne dis pas que la gloire de Shakespeare repose entièrement sur cela, pas plus que la gloire de l'islam dépende de cette qualité du Coran dont nous allons

parler. Nous cherchons seulement à comprendre la fortune des phrases, leur carrière et leur psychologie. D'où vient ce mérite d'une ligne qui a eu une fortune extraordinaire ? Est-ce intelligent? Pas trop, je dirais même que c'est simpliste. *To be or not to be.* C'est tout ce qu'il y a de plus banal. Est-ce son style qui fait sa distinction? Décidément pas. C'est le verbe être et c'est tout.

Pourtant, le sort inouï de cette ligne de Shakespeare n'est [...][1]

...dépend surtout de son éducation, de son érudition – dira-t-on de son répertoire ? C'est enfin une qualité qui dépend de l'intelligence, de la connaissance et de l'étude. Mais, il y a en outre la qualité suprême d'un tableau, celle qui fait de lui une création immortelle, sa plastique. C'est l'insaisissable, l'inconscient, le très profond, l'inimitable et l'inscrutable dans l'œuvre d'art. Le public y est très sensible mais il est très difficile d'en analyser la cause. Elle ne dépend pas de l'intelligence, elle appartient à un autre domaine, celui de l'âme, celui des qualités humaines par excellence. Elle n'est pas transmissible et ne s'apprend pas. Elle est très distincte du style. Le style s'améliore avec le temps, ce qui est d'ailleurs un caractère de tout ce qui dépend de l'intelligence, force ordonnatrice et accumulatrice par excellence, tandis que la plastique est la plus développée chez les primitifs.

Malgré les difficultés nées de leur inhabileté technique, les primitifs italiens comme Masaccio, ont une plastique qui ne se trouve même pas chez Raphaël. Voici donc une différence cardinale entre le style et la plastique.

C'est pendant la jeunesse d'un art qu'on trouve la plastique la plus belle. Avant que les mots ne soient figés dans leur sens exact défini et symbolique, avant que les rapports entre les choses indiquées par les mots ne soient trop connus et trop importants, les rapports entre les mots eux-mêmes deviennent prédominants. La plus grande poésie – et

(1) Une lacune dans le texte original dactylographié, couvrant trois pages,àsavoir 8, 9 et 10. (M).

la poésie n'a aucune valeur si ce n'est pas à sa plastique qu'elle le doit – se trouve toujours pendant la jeunesse d'une langue. Dans l'extase de sa jeunesse, une langue crée les plus belles choses.

Le développement de l'intelligence, de la méthode et de la science, tue la plastique et tue la poésie et l'art en général. Avec les livres d'une langue mûre, on se documente mais on n'est pas exalté.

La plastique est le reflet de l'âme, sa projection au-dehors au moins la représentation d'une de ses qualités les plus remarquables. C'est le trait d'union entre l'homme et son milieu. Une fois atteinte, le relâchement s'opère comme si rien ne valait plus l'effort de la création. Plus la plastique d'une création nationale est forte, plus on trouve cette lassitude qui la suit. C'est comme si la mission de l'homme était de s'efforcer de représenter l'âme sous une forme quelconque. C'est le moyen le plus puissant de nous émouvoir et en même temps c'est la fin de nos efforts. Nous verrons que le Coran est le plus parfait exemple de la plastique d'une langue chez un peuple où la langue représentait leur seule puissance artistique ; elle a tellement exalté les Arabes qu'ils ne pouvaient plus rien faire d'autre que de la répandre. Très peu de temps après l'islam, les vrais Arabes s'épuisaient et il ne restait plus que les cendres du feu qui les avait incendiés. C'est surtout dans le printemps d'une langue qu'on trouve les plus belles œuvres plastiques. Dans ces temps les hommes sentent la vérité comme une chose matérielle. Le matériel et l'abstrait se confondent. Ils ne conçoivent pas l'abstrait, ils le voient, le touchent et le sentent. Le développement de l'intelligence interrompt cela et provoque une séparation entre l'abstrait et le matériel. Dans le premier cas, la plastique est facile et naturelle et de cela vient la plastique remarquable de tous les livres sacrés. Les modernes ne sont pas en état de comprendre ces livres de la manière ancienne. Ce n'est pas seulement dans l'art qu'on trouve la plus forte plastique, cela peut apparaître dans les idées ou dans l'action et toujours la vieillesse suit de près l'achèvement de l'œuvre plastique fondamentale de l'individu ou de la région (?). Les Grecs vieillissaient tout de suite après

Aristote et les Romains après l'Empire de César, deux œuvres qui représentaient les génies respectifs des deux nations.

Le secret d'une plastique forte n'est pas facile à saisir. On peut cependant soutenir que la musique est la plastique du temps et la peinture, ainsi que la sculpture et l'architecture, la plastique de l'espace. Pour une langue, la plastique est dans le temps et l'espace. Le rapport entre les dessins et le fond d'un tableau a été étudié sous le titre de « composition de l'espace » (space composition) comme le secret de la gloire de l'école du Pérugin et de Raphaël. La plastique littéraire est beaucoup plus compliquée et les exemples parfaits ne sont pas nombreux. On la cherche surtout dans quelques fragments des grands poètes dans leurs moments les plus sublimes. Mais je ne connais pas une œuvre qui tout entière représente l'origine de son inspiration, le milieu et l'âme de ses sujets, comme le Coran représente la plastique du désert et des peuples arabes.

Pour ceux qui ne peuvent ou qui ne veulent voir dans le désert qu'une vaste étendue de sable aride et morte, je n'ai rien à dire. On ne peut pas parler de la plastique de la musique pour ceux qui n'y trouvent que du bruit ou de la plastique d'une madone pour ceux qui n'y voient qu'une femme. Beaucoup parmi nous trouvent cependant que le désert a une âme, une vie et une personnalité plus marquées que les autres paysages. Pour ceux que l'aridité ne tente pas, je dirais que le sujet de l'œuvre d'art n'importe pas. C'est la finesse, l'exactitude et la force de sa plastique qui comptent.

En quoi retrouvons-nous le désert dans le Coran ? Commençons par la plastique de l'espace. Les modernes qui sont essentiellement des mathématiciens, reprochent au Coran le manque de logique et d'ordre. Regardons maintenant l'aspect du désert et surtout le caractère des routes qui le traversent. Elles sont tortueuses sans raison, font un détour énorme pour éviter un petit obstacle, gravissent des collines au lieu de suivre le trajet le plus évident. Elles présentent des courbes et des courbes interminables ; la ligne droite n'est pas chose naturelle au désert. Ce n'est pas une absence de logique, c'est plutôt une logique spéciale du désert qui ne peut pas être autrement. La logique des mathématiciens y est déplacée et sans objet. Seul compte le but que

l'on vise et que l'on veut atteindre sans trop faire attention au chemin suivi. La différence entre le Coran et un bel exposé philosophique moderne est la même que celle qui existe entre la route de La Mecque à Jérusalem et une autoroute. Tous les détours et le désordre s'expliquent quand on se rappelle que l'on ne perd jamais le but et la destination. Il faut avoir un sens de l'orientation très marqué comme chez les Arabes pour reconnaître qu'il y a dans le Coran une orientation nette à travers ce mélange et ce désordre et ces courbes infinies. On a l'impression de divaguer de temps en temps, mais tout de suite on est rappelé vers le but principal du livre, la glorification d'un seul être infiniment glorieux. C'est justement dans cet état que, pour ma part, je trouve les premiers signes de la plastique du désert et de la mentalité des races nomades. Rappelons-nous aussi que ce manque d'enchaînement dans les idées ne choque que notre intelligence mais que notre âme est loin d'être très ordonnée selon la logique de notre raison. Sous l'influence d'émotions fortes ainsi que dans nos rêves, les idées jaillissent de la profondeur de nous-mêmes sans ordre, comme un défi à l'intelligence et à la raison et ce n'est qu'après quelque temps que la cristallisation a lieu. Le désordre apparent des rêves est un tableau exact d'un état de notre âme et de même, je conçois le désordre dans le Coran comme le tableau non seulement de l'âme du désert et des Arabes, mais des couches profondes de l'âme humaine.

Passons maintenant aux répétitions. Une certaine répétition est essentielle dans toutes les œuvres d'art. Dans la musique comme dans l'architecture et la peinture, la répétition d'un thème est indispensable à la beauté. Il y a des répétitions banales, monotones, qui tuent. Dans les musées, une galerie de bustes d'empereurs romains heurte le goût, la répétition étant sans forme. La différence entre les deux sortes de répétition, la belle et la laide, n'est pas facile à expliquer mais elle est très facile à discerner. Pour les non-Arabes, les répétitions dans le Coran sont sans plastique. Examinons-les.

La langue arabe connaît, et trouve très beau, le « *saj'a* » qui est le fait que la prose soit clairement divisible en phrases plus ou moins courtes se terminant par une rime qui se répète deux ou trois fois. C'est un

caractère de la langue arabe qu'on ne trouve pas dans les autres langues. Tant que l'arabe était la langue des tribus nomades qui voyageaient en caravane dans le désert, le *saj'a* était beau et donnait à la langue un cachet naturel qui avait nettement la plastique du désert. Maintenant que l'arabe est devenu la langue de pays modernes et d'expression scientifique, la plastique du *saj'a* disparaît. C'est une forme trop désertique pour qu'on l'emploie avec succès dans les œuvres modernes où il me paraît toujours un anachronisme. Le *saj'a* s'explique très facilement par la forme du désert. Dans un long voyage dans le désert, on s'y perdrait sans la division inconsciente de la route en petites parties tranchées, limitées par des points de repère qui se répètent tout au long du voyage. L'enchaînement de phrases longues d'un intérêt soutenu, du commencement à la fin, progressant au travers des qualifications et des processus mentaux compliqués et coupe parfois par des interruptions plus ou moins longues et tout à fait étrangères à la langue des Arabes de l'Arabie. Le *saj'a* est pour eux une expression désertique comme les *milestones* qui sont essentielles à la vie dans le désert. Dans le Coran, le *saj'a* est inimitable. Les compositions dans cette forme de la littérature arabe postérieure au Coran ressemblent plutôt à cette galerie des bustes dont je parlais tout à l'heure. Ici la notion d'ordre et la logique géométrique qui prédominent dans les cités rendaient le sage un mélange insupportable de la cité et du désert qui correspond au même stade d'évolution que les thèmes des dessins qui se répètent infiniment et qu'on appelle arabesques sans beaucoup de raisons. Les phrases dans ces compositions finissent par être à peu près de la même longueur, les rimes reviennent régulièrement toutes les deux phrases. Toute la composition a de la sorte un caractère très artificiel. L'ordre et la symétrie qui sont étrangers au désert tuent la plastique du *sag'a*. Dans le Coran le *sag'a* est très souvent employé ; il y a des chapitres où toutes les phrases riment mais elles sont d'une longueur inégale. L'appui sur la rime est quelques fois très fort et d'autres fois peu accentué, une seule phrase peut s'écarter de la rime. Les rimes ont du caractère, il y en a qui sont riches et entraînantes et d'autres qui sont courtes et cassantes. Tout cela fait de l'ensemble comme un aspect du désert, une expression du nomadisme qui est unique dans les créations

littéraires. Juger une telle œuvre en la comparant à de simples livres ne peut être qu'une folie des critiques et ne prouve que leur insensibilité complète aux qualités essentielles du Coran.

Reste à expliquer l'éternelle répétition partout dans le Coran des mêmes idées, la grandeur de Dieu, la certitude de la résurrection et d'autres exhortations de toutes sortes. Sur ce fond d'arguments simples et de conseils moraux, de promesses pour ceux qui font le bien et de menaces pour ceux qui font le mal et surtout l'interminable appel à croire à un Dieu, sur ce fond qui ne présente pas beaucoup d'aspects différents, il y a parsemées ici et là, des oasis d'un caractère plus varié, plus savoureux, plus succulent, comme l'histoire de la Genèse, d'Adam et Eve et surtout l'histoire des Israélites. L'histoire d'Israël est comme une mine d'où on tire quand c'est nécessaire, toute l'expérience et tous les conseils que l'histoire des peuples pouvait fournir. Quelquefois on ne trouve que deux ou trois phrases pour rappeler un récit historique et d'autres fois l'anecdote est racontée dans tous ses détails. Ces vraies oasis sont superbes dans leur genre ; c'est une base de ravitaillement pour l'esprit, une fin pour les conseils qui l'ont précédée et un prétexte pour donner de nouveaux conseils. Les oasis plaisent beaucoup aux modernes et ne le cèdent en rien aux meilleurs contes du monde. Leur style est concis, sans répétition et diffère entièrement du style des autres parties. L'histoire de Joseph, de l'Exode, de la naissance miraculeuse de Jésus sont d'une suite, d'une logique et d'un ordre incomparables. Je conseille aux Européens désireux de se rendre compte de ce qu'est le Coran de commencer par quelques morceaux choisis où ces oasis sont groupées. Ils auront ainsi une œuvre qui leur plaira énormément. Une telle collection de ces oasis donnerait une vague impression de la cité ou en tout cas serait compréhensible par les citadins. Mais ce ne sera plus le Coran, ce ne sera plus le désert et ce ne sera plus ce qui a enflammé les Arabes. Ce sera beaucoup moins que le Coran mais ce sera cependant pour les Européens plus compréhensible et plus vrai que les traductions littérales qui sont sans valeur aucune et qui ne sont vraies qu'en

apparence, ce qui est le meilleur moyen de mentir. Nous trouvons par exemple la traduction actuelle de l'Évangile en arabe, bien que traduction littérale, plus insupportable que les traductions européennes du Coran. Ces oasis sont donc d'une grande valeur pour les modernes, mais à elles seules elles n'auront pas la même plastique désertique que lorsqu'elles sont précédées et suivies par l'étendue énorme et monotone du fond du tableau. On voit partout le plein air, la vision libre, aussi bien dans le fond que dans ces oasis. Quand il y a un tableau à faire, il est fait, toujours avec la plus grande économie de phrases, en quelques-unes de ces phrases qui sont comme des lignes libres et grandioses qui englobent le ciel et la terre. Telle est, par exemple, la description de la fin du Déluge : « Il était dit à la terre absorbe ton eau, au ciel cesse, l'eau s'en va, la barque s'arrête sur la montagne et les incroyants ne sont plus ». Il est impossible dans une traduction de rendre la plastique forte et magnifique de ces versets.

Il y a en outre dans le Coran la plastique très subtile du temps. Il y a tout d'abord ce qu'on peut appeler la vitesse du style. Chaque œuvre littéraire a une allure spéciale à laquelle il faut la lire. Il y a des auteurs qui demandent à être lus lentement ou vite. Le Coran progresse lentement. Lire le Coran vite, c'est perdre beaucoup de sa beauté. D'ailleurs il n'est pas fait pour être lu. Il faut l'entendre psalmodié lentement. L'approcher autrement détruit beaucoup de sa plastique. C'est comme si vous étudiiez un tableau de Rembrandt reproduit par exemple en bas-relief sur bois. Ce serait voir le squelette ou le cadavre d'une œuvre d'art que de la reproduire dans une matière différente de celle dans laquelle elle a été conçue. Le Coran a été conçu récité et non écrit et, de plus, récité lentement. En prononçant un discours arabe énergique on sent le besoin d'aller vite mais du moment qu'on arrive à une citation du Coran on est forcé d'aller doucement sur un rythme défini. C'est une qualité très mystérieuse de sa plastique.

Examinons maintenant une autre qualité du temps qui est assez difficile à saisir. Le sens du temps est une fonction de la vie et là où la vie n'est pas très intense, où ses diverses manifestations ne se suivent

pas de très près, le temps prend un aspect très curieux. Alors de petites durées passent très lentement tandis que de longues durées passent inaperçues ; les jours passent très lourdement dans la solitude mais les années s'effacent plus vite que les jours. C'est exactement le même phénomène qui se produit dans les voyages à travers le désert, la plus longue durée, c'est celle du trajet jusqu'à l'arbre prochain, jusqu'au point de repère suivant. Le Coran est très long, l'ordre en est empirique, les répétitions sont excessives, des passages entiers se ressemblent et pourtant le livre est très facile à apprendre mot par mot. D'autres livres dont la logique et l'ordre devraient les rendre plus faciles à apprendre n'ont jamais été appris de cette manière. N'est-ce pas une qualité de sa plastique qui le fait ressembler aux longs voyages dans le désert sur des trajets qui ne varient pas beaucoup. On ne peut pas ne pas sentir l'âme du désert dans tous ses aspects quand on entend le Coran. Les Arabes le sentaient très fortement, y voyaient là l'accomplissement parfait de tout ce dont ils étaient capables, et de tout ce que le milieu où ils vivaient pouvait inspirer. Le Coran englobait leur esprit, leur art, leur vie entière de telle manière que les Arabes n'avaient plus besoin de faire aucune autre œuvre remarquable. Le Coran représentait la fin de leur mission dans la vie, aussi furent-ils comme finis et épuisés très vite après l'apparition du Coran.

Ces quelques observations peuvent éclaircir un peu ce mystère de l'histoire littéraire qu'est l'emprise du Coran sur les Arabes. C'est une théorie qui, je crois, est nouvelle, la théorie de la plastique des mots qui sont une création strictement humaine. Comment un mot par ce qu'il signifie, par sa forme, par sa musique, par son rapport avec d'autres mots, en somme par toute sa personnalité d'être vivant, comment ce mot peut-il devenir l'expression d'une âme, le tableau mystique et inconscient de l'essentiel d'un paysage ou d'un peuple ? C'est en cela que réside le miracle du Coran, je n'en connais pas d'autres exemples sauf quelques fragments isolés qui n'ont pas l'envergure du Coran. La plastique d'autres nations n'est pas nécessairement dans leur littérature. La plastique des Juifs par

exemple, réside, je crois, dans l'Exode. Mais c'est dans l'action de l'Exode et non pas dans la forme de sa composition qu'on trouve le caractère distinctif de ce peuple. Les incroyants diront que l'Exode n'a peut-être jamais eu lieu. On peut leur répondre qu'une œuvre littéraire est vécue par un peuple, qu'elle fait partie de son existence et qu'elle est aussi vraie que les faits historiques eux-mêmes. Elles sont même plus vraies car il y a plusieurs moyens de raconter un fait historique tandis que l'œuvre littéraire est là, sous nos yeux, toujours identique à elle-même. Le fait que le Coran ne représente que la plastique du désert n'en diminue pas la valeur. Il est des tableaux de mendiants qui sont infiniment plus superbes qu'une mise en croix ou une madone.

Cette plastique magnifique rend le Coran unique. Il est ridicule de le juger selon les critères des valeurs littéraires ordinaires. Le Coran est la grande symphonie du désert, c'est le tableau mystique de ces peuples qui sentaient la force magique du livre sacré avant même de le comprendre.

Je cherche un mot pour décrire cette influence. Il n'y en a qu'un. Le Coran ne peut être qu'une inspiration véritablement DIVINE.[1]

(1) Le mot écrit en majuscules dans le texte original. (M).

Appendice I

Le texte d'une lettre adressée par un ministre turc à Taha Hussein

LEGATION DE TURQUIE

Le Caire

Excellence,

Le Caire, le 5 Mai 1945

La Bourse Egyptienne du 3 mai a publié quelques extraits des déclarations que vous avez faites à un correspondant d'une revue qui vient de paraître. Elles sont comme toujours marquées d'une élévation d'esprit et d'une profondeur de vue qui caractérisent toutes vos déclarations. Je ne me hasarderai pas d'exprimer ma manière de voir sur un sujet qui dépasse ma compétence mais je voudrais que Votre Excellence veuille bien éclaircir un mystère qui préoccupe ma pensée.

Votre Excellence déclare que l'Egypte est restée indépendante, elle a engagé avec le monde extérieur des contacts prospères jusqu'a ce que les Turcs ottomans aient mis un terme a son indépendance pour la confiner dans l'isolement mortel." Ceci veut certainement dire en langage commun que l'Egypte a été plongée dans un isolement qui l'a conduite a une décadence spirituelle et morale du fait de la conquête turque qui a mis fin à toute manifestation de la pensée ainsi[1] qu'à la marche du progrès matériel.

Je vous prie de croire qu'il n'entre guère dans mes intentions de discuter cette affirmation devenue un slogan prononce àprofusion dans toutes les contrées qui jadis formaient l'ensemble de l'Empire Ottoman. C'est la Turquie, disent les penseurs orientaux imbus d'esprit levantin, qui par sa mauvaise administration et ses autres défauts a entravé la marche de la civilisation dans ses Etats et a empêchél'éclosion de la pensée, source de toute activité humaine. Vous entendrez Excellence ce refrain tout aussi bien en Grèce comme en Bulgarie, en Roumaine et en Yougoslavie voire même en Hongrie où les maîtres de la pensée ne trouvent aucune excuse pour expliquer l'infériorité manifeste dans le domaine spirituel et moral qu'ils constatent dans leurs pays respectifs.

---

(1) 'Aussi' dans le texte original. (M)

L'isolement mortel des pays islamistes dont parle Votre Excellence ne doit pas être situé au seizième siècle. Cet isolement était déjà consommé dès le treizième à la suite des Croisades, des invasions mongoles et des troubles intérieurs qui ravagèrent l'Orient moyen. C'est donc par d'autres facteurs et non point par les Turcs ottomans comme se plaît à le proclamer Votre Excellence que le monde arabe a été plongé dans l'isolement mortel. Nul ne peut ignorer certes la contribution brillante des arabes et des peuples arabisés à la civilisation de l'époque héroïque. Mais le déclin devait suivre l'apogée - n'est-ce pas d'ailleurs un processus normal - et cette décadence commença a se manifester non seulement dans le domaine militaire mais aussi dans celui des arts et de la pensée. C'est pourquoi tandis qu'en Occident la rénovation des lettres et la connaissance approfondie des Anciens provoquaient au quinzième siècle le mouvement de la Renaissance, le Moyen Orient se trouvait à cette époque dans le chaos le plus complet, militairement et spirituellement. L'isolement mortel était complet et la Turquie n'avait pas encore étendu sa conquête sur les pays arabes. En admettant même que la Turquie ait oppressé en Egypte toute manifestation de l'esprit comment expliquer alors la régression intellectuelle des autres pays islamiques tels que l'Iran, l'Afghanistan, les Indes musulmanes, la Tunisie et l'Algérie dont[1] nul soldat ou fonctionnaire turc n'a jamais foulé le sol. Si l'enseignement et l'éducation ont été opprimés par les Turcs pourquoi l'art, la science et la connaissance n'ont-ils pas fleuri dans le reste du monde islamique. Et que dire du Maroc, dont la France en 1912 ne découvrit que des êtres primitifs, ignorants et à demi sauvages, ces Maures dont les ancêtres avaient durant de nombreux siècles gouverné avec tant d'éclat la péninsule ibérique. Ce n'est pas Excellence, l'administration turque qui plongea ces pays dans l'état de misère d'ignorance et de désolation que nous connaissons et je pense que la marche au ralenti constatée en Orient et dans le monde musulman en général doit être expliqué par un phénomène d'ordre plus général. Un esprit aussi éminent que le vôtre a le pouvoir de discerner le mal et de le proclamer en toute franchise.

(1) 'Ou' dans le texte original. (M)

Je me suis permis de vous adresser ces quelques lignes pour vous assurer d'abord du profond respect que j'éprouve envers votre personne et ensuite pour vous dire Excellence que j'aimerais voir dans vos raisonnements critiques et vos dissertations philosophiques des vérités qui planent au dessus du niveau commun et qui demeurent dégagées de tout préjugé démodé et désuet.

Veuillez agréer, Excellence, les assurances de ma haute considération et de mes sentiments dévoués.

[S ignature n' est pas lisible]

Appendice II

Images des quelques manuscrits de Taha Hussein

AVANT - PROPOS

PAR LE DR TAHA HUSSEIN PACHA

Quand il s'est agi de célébrer le millénaire d'Abou l-'Alâ,j'avais été d'avis que la meilleure participation de l'Egypte à cette célébration ne pouvait être que de retrouver l'héritage du Cheikh de Ma'arra et d'éditer cette oeuvre avec un soin critique moderne. J'avais soumis cette proposition au Ministre de l'Instruction Publique d'alors,Naguib El Hilali Pacha:il l'approuva et forma une commission pour passer à la réalisation. A cette commission il fournit toute l'aide matérielle dont elle avait besoin.Il lui facilita la mise en train de la tâche malgré les circonstances difficiles que traversait le monde en ces heures de son histoire. Aussi la délégation égyptienne, lors des cérémonies de Damas en 1944, fut -elle en mesure de présenter aux assistants le premier livre de cet ensemble auquel l'on n'a point cessé de travailler sans discontinuer jusqu'à maintenant.

Quand on parla au moment de célébrer le millénaire du prince des philosophes musulmans et du plus grand d'entre eux sans conteste, le Cheikh Abou 'Ali Ibn Sina, j'ai pensé que la meilleure participation de l'Egypte devait être analogue à celle de notre pays lors des fêtes de Abou l'Alâ: il fallait ressusciter l'héritage de l'éminent Cheikh comme avait été ressuscité celui du Poète, "le prisonnier des deux prisons" .

Je présentai cette proposition à M. Ali Bey Ayyoub Ministre de l'Instruction Publique de cette époque, il l'approuva comme avait fait Naguib el Hilâli . Il forma lui aussi une commission et se préparait à lui fournir toute l'aide et tout l'appui dont elle avait besoin lorsqu'il quitta le ministère avant que la commission ait eu le temps d'avancer son travail. Il était peut être écrit que je serais chargé du Ministère de l'Instruction Publique.

Monsieur le Recteur, Monsieur le Président, Monsieur le Ministre de l'Education Nationale, Excellences, Mesdames, Messieurs,

Il me faudrait une éloquence toute athénienne, celle de Votre grand Isocrate par exemple, pour dire le sentiment de reconnaissance et de gratitude qui remplit mon coeur depuis que je suis arrivé en Grèce.

Sentiment de gratitude et de reconnaissance à Leurs Majestés les Souverains de Grèce, pour la haute sollicitude dont ma femme et moi-même avons été l'objet, et à dire ma gratitude à Sa Majesté le Roi des Hellènes pour la distinction personnelle dont j'ai été l'objet.

Je me dois de remercier le Gouvernement Hellénique pour toutes les marques de courtoisie et de bienveillance qu'il nous a accordé à ma femme et moi.

Quant à l'université d'Athènes et l'honneur qu'elle vient de me conférer en me nommant Docteur Honoris Causa, elle doit savoir que la manière de se remercier entre savants c'est d'offrir une collaboration fertile et utile qui fait du bien à l'humanité.

C'est XX vous dire l'émotion qui m'étreint, que je réalise la chose irréalisable, lorsque je parle là où les maîtres de l'humanité ont parlé il y a plus de vingt siècles. Parler là où ont parlé Socrate, Platon, Aristote Démosthène, Isocrate est une chose qu'on rêve.

Il n'y a pas de pays qui peuvent dire ce que la Grèce et l'Egypte peuvent dire de leur amitié millénaire. Nous nous connaissons, XX nous collaborons, non pas depuis des siècles, mais depuis des dizaines de siècles. Pendant ces milliers d'années, les deux amies ont subi pas mal de revers, acquis pas mal de gloire. Nous avons collaboré ensemble. Nous avons lutté des fois l'un contre l'autre. Nous nous sommes connus avant d'autres pays. Notre collaboration n'a pas eu de bornes. Pendant dix siècles, votre langue fut la langue officielle de l'Egypte depuis Alexandre, jusqu'à l'arrivée de l'Islam aux bords du Nil; votre culture fut la nourriture spirituelle de l'Egypte depuis le 4 ème siècle avant l'ère chrétienne jusqu'aujourd'hui et le sera pour toujours. L'Egypte vient d'[illegible]

~~La Puissance mystique du Koran expliquée aux non-musulmans~~

Un musulman versé dans les traditions Islamiques et elevé dans un milieu où le culte pour la beauté du Koran est très developpé subit l'influence de ce livre fameux à un degré et avec une force que rien au monde ne peut égaler. Le Koran met les Musulmans qui s'en penetrent dans un etat d'extase tout particulier; à l'entendre on se sent élevé plus haut que soi-même; un nouveau monde s'ouvre devant soi; on est envahi par un bonheur mystique, par une beatitude qui est de la volupté spirituelle. Pour s'en faire un idée on peut se rapeller ce que les grands musicians doivent éprouver dans leur moments les plus sublimes. L'influence du Koran sur les ~~musulmans~~ est d'ordre miraculeux et le miracle est si evident que nous n'avons pas besoin de l'analyser. Le miracle nous enveloppe de son mystère profond et touche nos âmes si profondément que sa nature est acceptée comme très proche du grand mystère de l'âme même et de Dieu. Aucune oeuvre litteraire n'a jamais eu sur les hommes la maitrise qu'a eu le Koran sur ceux qui sont à même d'en apprecier la puissance.

Malheureusement les Européens, de meme croirai-je volontier que les Hindous et les Japonais, n'y trouvent rien de tout cela. Dire qu'ils sont sourds à la beauté du Koran comme on peut être sourd à la musique est probablement vrai mais ne nous avance pas beaucoup.

Aussi, est-ce dans le but d'expliquer aux non-musulmans l'influence unique du Koran que j'ai entrepris cette etude objective du grand livre; et même, plutot que non-musulmans il vaudrait mieux dire non-arabes parce que les arabes, même les Chretiens, sont sensibles à cette influence. Afin de pouvoir présenter une vue impartiale j'ai dû renoncer à mes sentiments de musulman pour une minute car je cherche uniquement à étudier un phenomène d'ordre litteraire.

LE PROBLEME DE L'ORIENT

PAR

LE DR. TAHA HUSSEIN BEY

Les graves problèmes qui se posent à l'attention du monde ne se limitent pas à l'Europe. L'Orient aussi a ses problèmes qui ne sont ni moins graves, ni moins importants pour la coopération internationale.

Car la vie internationale ne se base pas et ne saurait se baser sur l'isolationisme ou le compartimentage du monde; elle se base au contraire sur la solidarité des intérêts, l'échange des services et la complexité des buts. De sorte que toute manifestation de trouble ou de faiblesse qui apparait dans une partie quelconque du vaste monde a ses répercussions plus ou moins profondes sur l'ensemble du monde.

La grave question qui se pose aujourd'hui est celle-ci: les relations qui s'étaient établies dans les temps modernes entre l'Orient et l'Occident étaient basées sur le fait que l'Orient était faible, attardé, et l'Occident fort, intelligent, rusé, habile dans l'art d'exploiter, en mesure de faire tout ce qu'il voulait.

Mais les choses ont beaucoup changé depuis le siècle dernier; et ce changement a été accéléré par la première guerre mondiale; si bien qu'aujourd'hui il n'est plus permis de l'ignorer ou de ne pas en tenir compte.

Dans le siècle dernier l'attention de l'Europe était concentrée sur l'Empire Ottoman qui s'étendait sur trois continents. L'Orient était alors une unité qui était représenté par la Sublime Porte. Et les puissances européennes se divisaient selon leur convictions (ambitions?) et leurs intérêts autour de "l'homme malade".

Mais après la première guerre mondiale il n'y eut plus d'homme malade autour duquel on pouvait se disputer. Il y eut désormais plusieurs unités nationales qui luttaient pour la réalisation de leurs droits et la conquête de leur indépendance. Et la Turquie fut l'une de ces unités et la plus importante. Elle a démenti les prévisions de l'Europe en prouvant qu'elle pouvait perdre son empire et vivre malgré cela d'une vie forte et prospère, entourée du respect de toutes les puissances.

La Turquie s'est débarrassée de tous les vieux germes de maladie ou de faiblesse et s'est relevée après sa défaite plus vivace que jamais. Elle repoussa l'envahisseur, refusa le traité de Sèvres et obligea l'Occident à signer avec elle le traité de Lausanne. Ensuite elle prouva à l'Occident qu'après avoir retrouvé ses frontières naturelles et rénové ses institutions, elle continuait à être un élément important de l'équilibre international. Nous vîmes alors l'Europe entrer en négociations avec elle au sujet des Détroits puis se disputer son alliance à la veille de la seconde guerre mondiale. Nous vîmes enfin la Turquie adopter entre l'Allemagne et ses ennemis l'attitude que chacun connait caractérisée par l'énergie, la fermeté et la souplesse.

Cependant l'Occident prévoyait certainement que l'empire auquel la Turquie avait renoncé serait partagé comme butin de guerre entre les puissances victorieuses.

Les théologiens musulmans seraient bien surpris s'ils lisaient Leibniz de retrouver dans la Théodicée des idées qui leur sont familières puisqu'elles ressemblent étrangement [illegible] qu'on discute encore à l'Azhar quand on étudie les [illegible] des Mutazilites ceux-ci, en effet, se rencontrent avec Leibniz sur bien des points. Je me contenterai d'en indiquer deux:

1. Le premier est la conception même [illegible] Mutazilites on le sait, furent condamnés par les musulmans [illegible] (1) parce qu'ils professaient que les attributs de Dieu [illegible] sont pas de son essence. Ils disaient que Dieu est la [illegible] choses, qu'il [illegible] en lui la raison de son existence [illegible] conséquent il est nécessaire ( ) et éternel ( ) que le monde étant possible ( ) ne pourrait [illegible] sans une raison suffisante ( ) qui détermine [illegible] et le fait préférer à d'autres mondes possibles [illegible] (2) que cette raison suffisante est dans l'entendement ( ) [illegible] la volonté ( ) de Monsieur Dieu, étant nécessaire [illegible] en lui un Raison d'être doit être intelligent ( ), voulant ( ) et puissant ( ). Par son intelligence il [illegible] les possibles. Par sa volonté il choisit. Et par sa puissance il crée. Mais l'intelligence, la volonté et la puissance ne sont [illegible] des attributs séparés de l'essence divine ( ): ils sont l'essence même de Dieu ( )(3). S'ils étaient autre chose que l'essence de Dieu, ils seraient ou nécessaires et éternels comme lui, et alors Dieu ne serait pas un, il y aurait autant de dieux que d'attributs; ou bien ils seraient possibles et ne pourraient être l'attribut de Dieu, le possible ne pouvant être attribut du nécessaire. Les Mutazélites croyaient réaliser ainsi l'unité parfaite de Dieu et se paraient volontiers du titre de ( ) c'est-à-dire partisans de l'unité divine.

---

1) Voir [illegible], Tome III, p.p. 388-[illegible], Constantinople, 1311 de l'Hégire.
2) Voir [illegible], Tome III, p.p. 3 et 4.
3) Voir [illegible], Tome III, p. [illegible]

[illegible]

Monsieur le Ministre

J'ai reçu il y a quelques jours la lettre que Votre Exc. a bien voulu m'écrire à propos d'une déclaration que j'ai faite à une nouvelle revue que la Bourse a traduit.

Permettez-moi tout d'abord de remercier très sincèrement Votre Ex. des bonnes paroles qu'elle m'adresse et de la bonne opinion qu'elle a de moi.

Que Votre Ex. se rassure : ~~[illegible]~~ en faisant ma déclaration je n'ai voulu dénigrer ni favoriser personne. Seul le souci de la vérité historique m'a fait dire ce que j'ai dit.

Je n'ai pas la compétence suffisante pour discuter de la situation des pays que votre Ex. mentionne en Asie en Afrique et en Europe.

Mais je sais que ~~ce que j'ai dit pour~~ jusqu'[illegible] pour l'Egypte ~~[illegible]~~ j'ai dit la vérité vraie. Avant la conquête Ottomane notre pays avait une indépendance complète qui lui permettait d'établir des relations diplomatiques, économiques et même scientifiques avec l'Europe méditerranéenne. ~~Il avait~~ de une civilisation florissante. Le Caire jouait le rôle ~~[illegible]~~ d'Alexandrie ~~[illegible]~~ du monde intellectuelle ; notre Université d'El Azhar et les écoles que les Sultans Mamlouks ~~fondaient~~ avaient un peu partout, jouaient à peu près le rôle du Musée des Ptolemées. Chose curieuse une renaissance scientifique, littéraire et artistique en Egypte [illegible]